سام هاريس

ترجمة حيدر عبدالواحد راشد

الكذب

بيت الحكمة 2.0
Bayt al-Hikma 2.0

سام هاريس

الكذب

ترجمة
حيدر عبد الواحد راشد

A translation of “Lying” © 2013 Sam Harris

Translation published by Bayt Al Hikma 2.0, a program of Ideas Beyond Borders 2018

Executed by MasterWord Services

Translated by Heydar Abdulwahid Rashed

Edited by Ahmed Abdulmajeed and Hala Gamal

Proofread by Muath Nassar Telfah

من بين المفارقات العديدة للحياة البشرية، لعل هذه المفارقة أكثرها غرابةً وأهميةً: **كثيرًا ما نتصرف بطرقٍ من المؤكد أنها تجعلنا تعساء**، فالعديد منا يقضون حياتهم وهم يسيرون بكل وعي نحو ما يسبّب لهم الشعورَ بالندم، والأسف، والذنب، وخيبة الأمل. وما من شيء يتّضح فيه دورُنا الإرادي في مآسينا، أو التباين بين حجم المعاناة التي نخلقها وحاجاتنا حينها، أكثر مما يتضح في الأكاذيب التي نرويها لأناس آخرين، فالكذب هو أسهل طريق إلى الفوضى.

خلال دراستي الجامعية في ستانفورد، حضرت حلقة دراسية غيّرت حياتي بالكامل، وكانت بعنوان: «المحلل الأخلاقي»، وأدارها بروفسور موهوب للغاية، هو رونالد أ. هوارد،[1] في هيئة محاورة سقراطية، وقد انصبّ نقاشنا على سؤال واحد في الأخلاق العملية:

هل الكذبُ خطأ؟

قد يبدو هذا السؤال لأول وهلة أساسًا ركيكًا لمساقٍ جامعي كامل، فأغلب الناس، على أي حال، يؤمنون فعلًا بأن الكذب عمومًا خطأ، ويعرفون أيضًا أنّه يبدو مُبررًا في بعض المواقف، لكنّ الأمر اللافت حول هذه الحلقة كان مدى صعوبة العثور على أمثلة للأكاذيب الخيّرة التي يمكن أن تصمد أمام تمحيص البروفسور هوارد، فمهما تكن الظروف، وحتى في المواقف التي قد يكذب فيها معظم الأخيار دون تحرّج، كان هوارد يرى الحقائقَ أجدرَ بأن تُقال معظمَ الوقت.

لم أعد أذكر رأيي في الكذب قبل أن أحضر «المحلل الأخلاقي»، لكنّ هذا المساق قام بأقرب ما مررت به في حياتي إلى ترقيةٍ للبرامج الدائمة في دماغي، فقد أنهيته مقتنعًا بأن الكذب، حتى في أتفه الأمور، يهدم العلاقات الشخصية والثقة العامة عبثًا.

يصعب أن أصف مدى الراحة التي نلتها بمعرفة ذلك، ولا أعني بهذا أنني كنت معتادًا على الكذب قبل التحاقي بمساق هوارد، بل إنني بِتّ أدرك أن أشكالًا لا تحصى من الحرج والمعاناة يمكن تجنبها بسهولة عبر **قول الحقيقة فحسب**، وصرت أرى من حولي عواقب فشل الآخرين في الالتزام بهذا المبدأ، وكأنها المرّة الأولى التي أرى فيها ذلك .

تظل هذه التجربة من أوضح الشواهد في حياتي على قوة التبصّر الفلسفي، فقد أثّر فيّ مساق «المحلل الأخلاقي» بطرقٍ نادرًا ما تسبّبها مساقاتُ الجامعة، إذ جعلني شخصًا أفضل.

ما هي الكذبة؟

قد يتّخذ الخداع أشكالًا عديدة، ولكنّ أشكاله ليست كلها أكاذيب. فحتى أكثرنا خُلُقًا يجاهد دومًا للحفاظ على انفصال المظاهر عن الواقع. فعبر وضع مستحضرات التجميل، تحاول المرأة أن تبدو أصغر أو أجمل مما هي عليه، لكنّ الصراحة لا تتطلب منها إصدار تحذيرات مستمرة مثل: «أرى أنك تنظر إلى وجهي: اعلم رجاءً أنني لا أبدو بهذا الجمال في الصباح الباكر...» وقد يتظاهر الشخص المستعجل بعدم ملاحظة أحد معارفه وهو يمر جواره في الشارع، وقد تتجاهل المضيفة اللبقة أن أحد ضيوفها قد تفوّه بشيء يبلغ من الغباء حدًا يبطئ من دوران الأرض. وحين نُسأل «كيف حالك؟» يرد معظمنا تلقائيًا بأننا بخير، متفهمين أن هذا السؤال مجرد تحية، وليس دعوة لمناقشة خيباتنا المهنية، أو مشاكلنا الأسرية، أو حالة جهازنا الهضمي. إن الإغفال من هذا النوع قد يعدّ ضربًا من الخداع، لكنّه ليس

أكذوبة بالضبط، فقد نتحاشى الحقيقة في لحظات كهذه، لكننا لا نتعمد اختلاق الأباطيل أو إخفاء حقائق مهمة على نحو يضرّ بالآخرين.

كثيرًا ما يكون الحد بين الكذب والخداع غامضًا، فمن الممكن حتى أن نُخدع بواسطة الحقيقة. فيمكنني مثلًا أن أقف على الرصيف أمام البيت الأبيض وأتصل بمقر شركة فيسبوك على هاتفي النقال: «مرحبًا، معك سام هاريس، أتصل من البيت الأبيض، وأود الحديث إلى مارك زوكربيرغ». قد تكون كلماتي حقيقية من منظور ضيّق، لكنّ العبارة تتضمّن خُدعةً، فهل أكون كاذبًا في هذه الحالة؟ الأمر وشيك.

الكذب هو تضليل الآخرين عن عمد حين يتوقعون محادثة صادقة.[2] وهذا يستثني من التهمة السحرة والحواة، ولاعبي الورق، وسائر المضللين غير المضرين، لكنّه يسلط الضوء على مشهد نفساني واجتماعي يسهل جدًا التعرف على شكله العام، فالناس يكذبون كي يشكل الآخرون معتقدات غير صحيحة، وكلما ازدادت أهمية المعتقدات —أي كلما اعتمد صلاح حال الشخص أكثر على فهمٍ صحيح للعالم أو على آراء الآخرين— ازدادت أهمية الكذبة.

ولكن مثلما لاحظت الفيلسوفة سيسيلا بوك، فلن نتمّكن من التقدم في هذا الشأن دون التمييز أولًا بين الحق والصدق، لأنّ المرء قد يكون صادقًا فعلًا مع أنه مخطئ.[3] والكلام بصدقٍ يعني التمثيل الدقيق لمعتقدات المرء، لكنّ الوضوح لا يوفر أي ضمانة على صحّة معتقدات المرء عن العالم، كما لا يستلزم الصدق أن يقول المرء الحق **كلّه**، لأن الإدلاء بكل واقعة في موضوع معين ليس مفيدًا على الأغلب، أو حتى ليس ممكنًا. وبالطبع، فإن لم يكن المرء واثقًا في صحة شيء ما، فإن الإفصاح عن درجة تشككه هو شكل من الصراحة.

بعيدًا عن هذا الإبهام، فإن إيصال ما يعتقد المرء أنه صحيح ومفيد معاً مختلف بالتأكيد عن إخفاء أو تشويه ذلك المعتقد. **فالقصد** من التواصل بصراحة هو معيار الصدق، ولا يحتاج معظمنا لشهادة في الفلسفة كي يفرقوا بين هذا الموقف وما يلتبس به.

يكذب الناس لعدة أسباب، فقد يكذبون لتجنب الإحراج، أو للمبالغة في إنجازاتهم، أو لإخفاء أخطائهم. وقد يقطعون وعودًا بأمور لا ينوون الوفاء بها، وقد يخفون عيوبًا في منتجاتهم أو خدماتهم، وقد يضللون المنافسين كي يتغلبوا عليهم، كما أنّ كثيرين منا يكذبون على أسرهم وأصدقائهم مراعاةً لمشاعرهم.

وأيا يكن غرضنا من الكذب، فقد تكون الكذبة ضخمة أو خفية، يتطلب بعضها حيلًا معقدة أو مستندات مزورة، وبعضها الآخر يتمثل فقط بالكنايات أو الصمت المحسوب. لكنّ الاعتقاد بشيء مع قصد الإخبار بآخر هو ما يصنع الكذبة.

لا شك أننا جميعا وقفنا على كلا جانبي الحد الفاصل بين ما يعتقده المرء وما يريد من الآخرين فهمه، وهذه الفجوة عادة ما تختلف حسب كون المرء هو الكاذب أو المكذوب عليه. فكثيرًا ما يتخيّل الكاذب أنه لا يُحدث ضررًا ما دامت كذباته لن تُكشف، ولكنّ المكذوب عليه نادرًا ما يوافقه الرأي، فما أن ننظر لخديعتنا من منظور من نخدعهم، فإننا سنشعر بالخيانة لو انعكست الأدوار.

كانت إحدى صديقاتي، واسمها سيتا، ذاهبة ذات مرة لزيارة صديقة أخرى، وأرادت أن تأخذ لها هدية صغيرة، ولكنهّا كانت تسافر مع ابنها الصغير لسوء الحظّ، فلم تجد وقتًا للتسوق. وحين كانا يستعدان

لمغادرة الفندق، لاحظت سيتا أن منتجات الاستحمام التي جُهّزت بها الغرفة كانت لطيفة جدًا، ولذا أخذت بعض الصابون، والشامبوهات، ومراهم الجسم في حقيبة، ثم ربطتها بشريط حصلت عليه من الاستقبال، ومضت في طريقها.

حين قدّمت سيتا الهدية، كانت صديقتها مبتهجة، وسألتها: «من أين حصلت عليها؟»

وإذ فوجئت سيتا بالسؤال، وراودها شعورٌ بعدم لباقة ما فعلته، فقد حاولت تأكيد موقفها بكذبة: «أوه، لقد اشتريناها من محل هدايا الفندق».

ثم جاءت الكلمات اللاحقة من ابنها البريء: «كلا يا أمي، لقد أخذتِها من الحمام!»

تخيّل وجهي هاتين المرأتين، متجمدتين مؤقتًا من الإحراج، ثم لائذتين لابتسامات الاعتذار والعفو. قد تبدو هذه من أتفه الأكاذيب —وهي كذلك— لكنها لم تفِد في زيادة مستوى الثقة بين الصديقتين. وسواء أأضحكتك هذه القصة أم لا، فهي تكشف عن أمر شائن في سيتا: أنها تكذب حين يناسبها ذلك.

إن الفرصة لخداع الآخرين حاضرة دومًا، وكثيرًا ما تكون مغرية، وكل موقف خداعٍ يلقي بنا في أشد التضاريس الأخلاقية التي نمر بها انحدارًا. فقلة منا قتلة أو لصوص، لكننا جميعًا قد كَذبنا، ولن يستطيع العديد منا أن يخلدوا لفراشهم الليلة دون أن يقولوا عدة أكاذيب على مر اليوم.

فما الذي يقوله ذلك عنا، وعن الحياة التي نكوّنها مع بعضنا؟

مرآة الصدق

تشير دراسة واحدة على الأقل إلى أن 10% من التواصل بين الأزواج خادع،[4] وقد وجدت أخرى أن 38% من اللقاءات بين طلاب الجامعة تتضمن أكاذيب.[5] فالكذب شائع، ولكن حتى الكاذبون سيقيّمون محادثاتهم الكاذبة بأنها أقل إرضاءً من تلك الصادقة، وذلك ليس مفاجئًا حقًّا: فنحن نعرف أن الثقة مثمرة بعمق، وأن الخداع والتشكك وجهان لعملة واحدة. وتشير الأبحاث إلى أن كل أشكال الكذب —حتى الكذب الأبيض الذي يراد به حماية مشاعر الآخرين— ملازم لعلاقات أقل إرضاءً.[6]

ما أن يلتزم المرء بقول الحق، فسيبدأ بملاحظة مدى ندرة أن يلتقي بشخص يشاركه هذا الالتزام، فالأشخاص الصادقون حصن وملجأ: فأنت تعرف أنهم يعنون ما يقولونه، وتعرف أنهم لن يقولوا أمامك شيئًا ووراءك شيئًا آخر، وتعرف أنهم سيخبرونك حين يظنون أنك فشلت، ولهذا السبب فإن مديحهم لا يمكن أن يكون مشوبًا بالإطراء البارد.

الصدق هدية يمكننا منحها للآخرين، وهو أيضًا مصدرٌ للقوة ومحرّكٌ للبساطة. فمعرفة أننا سنقول الحقّ، مهما كانت الظروف، لن يضطرنا إلى الاستعداد لكثير من الاحتمالات، ومعرفة أننا قلنا الحق في الماضي لن يتطلب منا أن نتابع أي شيء، بل سنكون ببساطة على سجيتنا في كل لحظة.

إننا نتجنّب كثيرًا من المشكلات طويلة الأمد بصدقنا مع الآخرين، وإن كنا نحصلُ جرّاء ذلك على بعض الضيق قصير الأمد أحيانًا، ومع ذلك، فلا تجدر المبالغة في هذا الضيق، إذ يمكنك أن تكون صريحًا ولطيفًا، لأنّ هدفك من الصدق ليس الإساءة للآخرين، بل أن يمتلك الآخرون المعلومات التي لديك، والتي تريد أنت أن تمتلكها لو كنت محلهم.

إنّ الأمر قد يتطلب تمرينًا كي تشعر بالراحة في نمط الحياة هذا، بحيث تلغي المواعيد، أو ترفض الدعوات، أو تفاوض على العقود، أو تنتقد أعمال الآخرين، وتظل مع كل ذلك صريحًا فيما تفكر وتشعر به. وفِعْلُ ذلك بمثابة حمل مرآة أمام حياة المرء، لأن الالتزام بالصدق يتطلب من المرء الانتباه إلى ماهيّة الحقيقة في كل لحظة، فأي نوع من الناس أنت؟ وكم أصبحت متحكمًا، أو نفعيًا، أو تافهًا مؤخرًا؟

ربما تكتشف أن بعض صداقاتك ليست صداقات حقًا، فلعلك تكذب عادةً لتجنب إعداد خطط ما، أو لعجزك عن التعبير عن آرائك الحقيقية خوفًا من الوقوع في المشاكل. فمن تُراك تساعد حقًا حين تحيا على هذا النحو؟ وربما تجد أن بعض العلاقات لا يمكن إدامتها بصدق، فنحن جميعا لدينا بالطبع أواصر يجب أن تدوم بشكل ما، سواء استمتعنا بها أم لا، مع أسرتنا مثلًا، وأصهارنا، وزملائنا، ورؤسائنا، وهلم جرا. لا أنكر هنا أن اللباقة قد تلعب دورًا في تقليص النزاعات، فصون المرء لسانه، أو توجيه المحادثة نحو موضوعات أكثر أمانًا نسبيًا، لا يماثل الكذب (كما لا يتطلب أن ينكر المرء الحقيقة فيما بعد.)

بوسع الصدق أن يجعل أي خلل في حياتك يظهرُ على السطح، فهل أنت في علاقة مؤذية؟ قد يُلزمك رفضُ الكذب على الآخرين –كأن تُسأل عن سبب هذه الكدمة–بالتصدي لهذا الموقف بسرعة شديدة. هل لديك مشكلة متعلقة بالمخدرات أو الكحول؟

الكذب هو روح الإدمان، وإذا لم نلجأ له، فلن تنهار حياتنا كثيرًا قبل أن يُلاحظ ذلك الآخرون .

يمكن لقول الحق أيضًا أن يكشف عن مواطن نرغب بتنميتها في شخصياتنا لكنا لم نفعل، أتذكّر كيف عرفت أنّه قد وقع عليَّ الاختيار لأكون متحدثًا باسم الصف في مدرستي الثانوية، لكّنني تنصلت من هذا الشرف قائلًا: إنني أشعر بأن شخصًا قضى وقتًا أطول في المدرسة أحقُّ مني بتقديم خطاب التخرج. لقد كنتُ أكذب، فالحقيقةُ أنّني كنت مرتعبًا من فكرة إلقاء خطابٍ علنيّ، وكنت سأفعل كل ما في وسعي لتجنّب ذلك، والظاهر أني لم أكن مستعدًا لمواجهة هذه الحقيقة عن نفسي، كما سمح لي استعدادي للكذب في تلك اللحظة بتجنب فعل ذلك لعدة سنوات أخرى، ولو أني أخبرت مدير مدرستي بالحقيقة آنذاك، فربما كان سيفتح معي حديثًا يستحقُّ الاستماع.

نوعان من الأكاذيب

عادة ما تقسم التجاوزات الأخلاقية إلى فئتين: الأشياء السيئة التي نفعلها (بالارتكاب) والأشياء الخيّرة التي لا نفعلها (بالإغفال). ونحن نميل عامة إلى الحكم على الفئة الأولى بقسوة أكبر، ومنشأ هذا التباين غامض بعض الشيء، لكنّه يرتبط بالتأكيد بالقيمة التي نوليها لطاقة المرء وقصده. **ففعل** شيء ما يتطلب طاقة، ومعظم الأفعال المهمة أخلاقيًا تتعلق بالقصد الواعي، أما **العجز عن فعل** شيء ما فقد يحدث عرضيًا بالكامل ويتطلب تصحيحه بذل الطاقة. وهذا الفرق مهم، فهناك اختلاف بين مد يدك في صندوق النقود وسرقة 100 دولار، وإغفالك إعادة 100 دولار كنت قد حصلت عليها بالخطأ. قد نعتبر كلا التصرفين جديرًا باللوم أخلاقيًا، لكنّ الأول وحده يمثل جهدًا واعيًا للسرقة. ومن نافلة القول إنه لو تكلّف المرء **أكثر** من 100 دولار كي يعيد 100 دولار تلقاها بالخطأ، فقلة منا قد ينتقدونه لو احتفظ بالمال وحسب.[7]

وكذلك الحال مع الكذب. فكذب المرء عن عمره، أو حالته الزوجية، أو مهنته شيء، وعدم تصحيحه للانطباعات الزائفة حين تظهر شيء آخر. فمثلًا، أوصف أحيانًا بأني «طبيب أمراض عصبية»، مع أني لست كذلك، بل أنا «عالم أعصاب»،فأطباء الأمراض العصبية يحملون شهادات في الطب ويختصون بدراسة اضطرابات الدماغ والجهاز العصبي. أما علماء الأعصاب فيحملون شهادة الدكتوراه ويجرون أبحاثًا، وأنا لست طبيبًا، ولا أملك أي خبرة إكلينيكية، ولا أحلم أبدًا بادعاء أني طبيب أمراض عصبية. لكني لا أرى من مسؤوليتي الأخلاقية أن أصحح كل موقف التباس في هذه النقطة. (والبحث في غوغل عن «Sam Harris» و- «neurologist»أي عالم الأعصاب- يشير إلى أن ذلك سيتطلب قدرًا هائلًا من الطاقة). ولكن لو بدا لي أن اعتقاد شخص ما بكوني طبيب أعصاب سيسبّب أذى معيّنًا، أو يعودُ عليّ بفائدة، فسأكون مذنبًا بكذبة "إغفال"، وسيهمني أخلاقيًا حينها أن أوضح المسألة. لكنّ قلة من الناس قد يساوون عجزي عن فعل ذلك بادعائي باطلًا أني طبيب أمراض عصبية في الأساس.

في مناقشتي لظاهرة الكذب، سأركّزُ عمومًا على أكاذيب "الارتكاب": أي الكذب في أوضح وأهم أشكاله، لكنّ معظم ما أقوله يصحُّ على أكاذيب الإغفال وعلى الخداع عمومًا، وسأركز أيضًا على الأكاذيب «البيضاء» –أي تلك التي نقولها بهدف تجنيب الآخرين الضيق– لأنها الأكثر إغراءً لنا، ولأنّها، في الغالب، الأكاذيب الوحيدة التي يقولها الأخيار وهم يخالون أنهم يحسنون صنعًا.

الأكاذيب البيضاء

هل تلقيت ذات يوم هدية مريعة بحق؟- كان يفترض بالوقت الذي قضيته في تمزيق ورق التغليف أن يهيئَك لذلك – لكنك فوجئت بها:

«واو...»

«هل أعجبتك؟»

«إنها رائعة، من أين حصلت عليها؟»

«بانكوك، هل أعجبتك؟»

«متى كنت في بانكوك؟»

«عيد الميلاد. هل أعجبتك؟»

«نعم... بالتأكيد، أين ذهبت أيضًا في تايلاند؟»

ها أنا الآن أتصبب عرقًا باردًا، فأنا لست مستعدًا لهذا، وفي العموم، فقد تعلمت أن أكون صريحًا حتى حين أباغَت. لا أقول الحقيقة دومًا على النحو الذي أرغب فيه، لكنّ إحدى حسنات قول الحقيقة هو أنها تظل منفتحة للتفصيل، فإن لم يكن ما تقوله من وحي اللحظة صائبًا تمامًا، فيمكنك أن تعقّب عليه وتعدِّله. وقد تعلمت أن الأفضل أن أكون غير لبق، أو فظًا، من أن أكون مدلسًا.

ماذا كان بوسعي أن أقول في الموقف السابق؟

«واو... هل يرتديه المرء أم يعلقه على الحائط؟»

«ترتديه. فهو دافئ حقًا، هل أعجبك؟»

«هل تعلمين؟ سرّني حقا أنك فكرت فيّ، ولكن ما من سبيل لأنْ يناسبني هذا، فنمط أزيائي ما بين الممل والممل جدًا».

وهذا أقرب كثيرًا إلى شكل الردود التي أرتاح إليها، لعل بعض الكنايات تتسلل إليه، لكنّ التواصل الأساسيّ صادق، فقد أعلمت صديقتي بوضوح بأن لا تتوقّع أن تراني أرتدي هديتها في لقائنا القادم، كما منحتها أيضًا فرصة كي تحتفظ بها لنفسها، أو أن تمنحها لصديق آخر قد تعجبه الهدية فعلًا.

قد يخشى بعض القراء الآن من أني أوصي بالعودة إلى مرحة التقهقر الاجتماعي الخاصة بالطفولة المبكرة، فالأطفال، على أي حال، لا يتعلمون كيف يقولون أكاذيب بيضاء حتى عمر الرابعة، حتى يتوصلوا لفهم وادراك حالات وعي الاخرين من حولهم.[8] ولكن ما من سبب يدفعنا للاعتقاد بأن الضوابط الاجتماعية، التي يصادف أنها تستقر في الرئيسيات أمثالنا عند حوالي عمر الحادية عشرة، ستقود إلى العلاقات البشرية المثلى، فهناك في الواقع أسباب عديدة للاعتقاد بأن الكذب هو السلوك الذي يجدر بنا تجاوزه كي نبني عالما أفضل.

تُرى ما العيب حقًا في الأكاذيب «البيضاء»؟ أولًا، ستظل أكاذيب، وبقولنا إياها، سنَجرُّ علينا كل المشاكل المترتبة على عدم صراحتنا في تعاملنا مع الآخرين، فالإخلاص، والأصالة، والنزاهة، والتفاهم — هذه المصادر وغيرها للثراء الأخلاقي- ستدمّر ما أن نُقْدم عمدًا على تمويه معتقداتنا، سواء افتضحت أكاذيبنا أم لم تفتضح.

ورغم تخيلنا أننا نقول بعض الأكاذيب بدافع التعاطف مع الآخرين، فنادرًا ما يصعب تشخيص الضرر الذي نحدثه جراء ذلك. فنحن، عن طريق الكذب، نمنع أصدقاءنا من الوصول إلى الحقيقة[9]، وجهلهم الناجم عن ذلك كثيرًا ما يضرُّ بهم بأشكال لم نتوقعها. فقد يعوّل أصدقاؤنا على أباطيلنا، أو يفشلون في حل المشاكل التي ما كانت لتحل إلا بفضل معلومات جيدة. بل إن الكذب كثيرًا ما يمثل انتهاكًا لحرية من يهمنا أمرهم.

وهذا مثالٌ بسيط :

«هل أبدو بدينة في هذا الفستان؟»

يؤكد معظم الناس أن الجواب الصحيح لهذا السؤال هو «لا» دومًا. بل يعتقد العديد في الواقع أنه ليس سؤالًا أصلًا، فالمرأة تعني ببساطة «قل لي أني أبدو جميلة». وإن كانت زوجتك أو خليلتك، فلعلّها تقصد حتى «قل لي إنك تحبني». وإن كنت تعتقد بصدق أن هذا هو الموقف الذي أنت فيه —أن النص مضلل وما بين السطور هو الرسالة بأكملها— فليكن كذلك. فالرد بصدق على ما بين السطور لن يكون كذبًا.

لكن هذه حالة حدّية لسبب وجيه: إنها تجسّدُ لنا الجانب المغري في الأكاذيب البيضاء، فلم لا نطمئن شخصًا ما بكذبة صغيرة ونتركه يواجه العالم بثقة أكبر؟ ولكن ما لم يلتزم المرء بقول الحقيقة حتى في مواقف كهذه، فسوف يرى أن الحدود تتجه للداخل، وتبدأ الاستثناءات من مبدأ الصدق بالتضاعف،

ولن يطول الوقت حتى تجد نفسك تتصرف كما يفعل معظم الناس دون جهد يذكر: حيث تراوغ في قول الحقيقة، أو حتى تكذب علنًا، دون أن تفكر في ذلك والثمن غالٍ جدا.

سألني أحد أصدقائي مؤخرًا إن كنت أظن أنّ وزنه زائد، ولعله كان في الواقع يسألني للتأكد فحسب، فقد كان الوقت بداية الصيف، وكنا نجلس مع زوجتينا بجانب المسبح. لكني أرتاح أكثر للاتكال على الكلمات التي يقولها الشخص فعلًا، بدلًا من قدراتي التخاطرية. ولذا فقد أجبت سؤاله بنحو مباشر: «لن يصفك أحد بأنك بدين، لكنّي لو كنت مكانك لفقدت خمسة وعشرين رطلًا». كان ذلك قبل شهرين، وهو الآن أخف وزنًا بخمسة عشر رطلًا.[10] لم يكن أيٌّ منا يعرف أنه كان مستعدًا للمضي في حمية حتى رفضت فرصة أن أكذب حول الهيئة التي يبدو بها في ملابس السباحة .

لنعد إلى صديقتنا في الفستان: ما الحقيقة هنا؟ لعلها تبدو بدينة فعلًا في الفستان، لكنّ العيب في الفستان، وإخبارها بالحقيقة سيسمح لها باختيار زي أكثر ملاءمةً لقوامها.

ولكن لنتخيل أن الحقيقة أصعب قولًا: فصديقُتك تبدو بدينةً في هذا الفستان، وفي كلّ فستان، لأنها بدينة **بحق**. لنقل أيضًا أنها عزباء، وفي الخامسة والثلاثين، وأنت تعلم أنّ أعظم رغباتها هي الزواج وإنشاء عائلة، كما تعتقد أيضًا أن العديد من الرجال سيرفضون مواعدتها وهي في وزنها الحالي. وإلى جانب الزواج، فأنت واثق من أنها ستكون أكثر سعادةً وصحّة، وتشعر على نحو أفضل تجاه نفسها، لو أنّها أصبحت رشيقة.

وما الكذبة البيضاء إلا إنكارٌ لهذه الحقائق، فهي تعني رفض تقديم النصيحة المخلصة عند الحاجة لها، وحتى في موضوع حسّاس كهذا، فإن الكذب يمثّل خذلانًا جليًّا للصداقة، فعبر طمأنة صديقتك بشأن مظهرها، فإنك لا تساعدها في فعل ما ترى أنه يجب عليها فعله، كي تحصل على ما تريده من الحياة.[11]

في العديد من ظروف الحياة، قد يكون التشجيع الزائف مكلفًا جدا لشخص آخر، تخيّل أن لديك صديقًا قضى أعوامًا يناضل دون نجاح كي يبني مسيرته في التمثيل– بالطبع فهناك كثيرٌ من الممثلين البارعين يناضلون على نفس النحو– لكنّ السبب في حالة صديقك يبدو واضحًا للغاية: إنّه ممثل رديء. وفي الواقع، أنت تعرف أن أصدقاءه الآخرين –وحتى والديه– يوافقونك الرأي، لكنهم لا يجرؤون على إخباره بذلك، ماذا تقول له إذن حين يشكو مجددًا من مسيرته المعطّلة؟ هل ستشجعه على «المضي فيها»؟ إن التشجيع الزائف ضربٌ من السرقة، فهو يسلب الوقت، والطاقة، والتحفيز من شخص كان سيستغلها لتحقيق أي هدف آخر.

لكن هذا لا يعني أننا محقون دومًا في أحكامنا على الآخرين، فالصدقُ يتطلب منا أن نعبّر عن أي شك قد يخامرنا في وجاهة آرائنا، ولكن لو كنا مقتنعين بأن صديقًا ما قد سلك منعطفًا خاطئًا في حياته، فليس من أمارات الصداقة أن نكتفي بالابتسام والتلويح له تأييدًا.

إن كانت الحقيقة نفسها أكثر إيلامًا من أن تقال، وكثيرًا ما لا تكون الحقائق الأساسية كذلك، فإنّ بالإمكان إيصالها بطريقةٍ تعمّق من الصداقة، وفي الأمثلة أعلاه نرى أن الحقيقة الأبسط هي أنك تحب أصدقاءك وتريد لهم السعادة، وأن بإمكان هؤلاء الأصدقاء أن يقوموا بتغييرات في حياتهم قد تقودهم إلى مزيد من إشباع رغباتهم، وعبر الكذب عليهم، فإنك لا ترفض مساعدتهم فحسب، بل تخفي عنهم معلومات مفيدة، وتدفع بهم نحو الإحباط مستقبلًا. لكن إغواَء الكذب في هذه الظروف قد يكون غامرًا.

حين نزعم أننا نكذب على الآخرين لمصلحتهم، نكون قد قررنا أننا **نحن** الحكّام الأفضل على ما يجب أن يفهموه عن حياتهم الخاصة، وعن مظهرهم، أو سمعتهم، أو آفاقهم في العالم. وذلك موقف من النادر أن نتخذه تجاه بشر آخرين، ويتطلب منا سببًا وجيهًا. فما لم يكن أحدهم يميل إلى الانتحار أو يقف على أي نحو آخر على شفا الهاوية، فإن تحديد ما يجبُ أن يعرفه عن نفسه يمثل خلاصة التعنت. أي موقف يا ترى سيكون أكثر استهانة بمن يهمنا أمرهم؟

وأنا أستعد لتأليف هذا الكتاب، طلبت من الأصدقاء والقرّاء أمثلة عن أكاذيب أثّرت عليهم، وسأورد بعض قصصهم فيما يلي. (لقد غيرت جميع الأسماء، لحماية الأبرياء والمذنبين معًا)

تحدث العديد منهم عن أفراد أسرة كذبوا على بعضهم بخصوص التشخيصات الطبية، إليك مثالًا:

> شُخّصت أمي بداء التصلب المتعدد (MS) وهي في أواخر الثلاثينات، وقد ظن الدكتور أنه من الأفضل أن يكذب ويقول لها إنها لا تعاني من التصلّب المتعدد، لكنه أخبر والدي بالحقيقة، وقرر والدي أن يحتفظ بها لنفسه لأنه لم يرد إزعاج أمي أو أي من أطفالها الثلاث.
>
> في الوقت ذاته، ذهبت أمي إلى المكتبة، وقرأت عن أعراضها، وشخّصت نفسها بداء التصلب المتعدد، وقررت بدورها ألا تخبر والدي أو أولادها لأنها لم ترد إزعاج أيّ منهم.
>
> وبعد عام كامل، حين ذهبتْ إلى الطبيب لإجراء فحصها السنوي، أخبرها بأنها تعاني من التصلب المتعدد، فاعترفت بأنها كانت تعلم لكنها لم تخبر أحدًا، واعترف أبي بأنه كان يعلم لكنه لم يخبر أحدًا، وهكذا فقد أمضيا عامًا كاملًا يكتمان سرًا دون أن يدعم أحدهما الآخر.
>
> أما أخي فقد عرف بالصدفة بعد عام آخر، حين خضعت أمي لجراحة سرطان الثدي، فقد دخل الجراح إلى الغرفة وقال ما خلاصته: «لن يؤثر ذلك على التصلب المتعدد». فقال أخي «أي تصلب متعدد تعني؟» وأظن أنه مضى عامان آخران قبل أن يخبرني أحدهم أو يخبر أختي عن إصابة أمي بالتصلب المتعدد... وبدلًا من الشعور بالامتنان والحماية، شعرتُ بالحزن لأننا لم نتكاتف كعائلة كي نواجه مرضها ويدعم بعضنا بعضًا.
>
> لم تخبر أمي أمّها أبدًا عن التصلب المتعدد، مما يعني أن أيًّا منا لم يستطِع إخبار العائلة والأصدقاء، خشية أن تعرف أمها عن ذلك، لأنها لم ترغب أن تشعر أمها بالأسى، وأظن أنها حرمت نفسها بذلك من فرصة تكوين علاقة أعمق مع أمها.

كانت هذه الأمثلة على الخداع الطبي شائعة جدًا ذات يوم، وقد عايشت في الواقع مثالًا عليها ضمن أسرتي: فقد توفيت جدتي لأمي بالسرطان حين كانت أمي في السادسة عشرة، لقد كانت تعاني من سرطان الجلد المتفشي لمدة تقارب العام، لكن طبيبها قال لها إنها مصابة بالتهاب المفاصل، غير أنّ زوجها، أي جدي، كان يعرف التشخيص الصحيح وقرر أن يستمر في الخديعة أيضًا.

بعد أن تدهورت حالة جدتي ونقلت أخيرًا إلى لمستشفى، أسرّت إلى ممرضة بأنها تعرف أنها ستموت، لكنها تخيّلت أنها كانت تُبقي ذلك سرًّا عن بقية العائلة، بما فيهم زوجها. فقد ظلت أمي وأخوها الأصغر جاهلين تمامًا بالأمر، وفي تصورهم، حُجزت والدتهم في المستشفى بسبب «التهاب المفاصل» ثم لم تعد.

فكّر في كل الفرص لتعميق الحب، والتعاطف، والمغفرة، والتفهم التي تضيّعها أكاذيبُ بيضاء من هذا النوع. حين نتظاهر بعدم معرفتنا بالحقيقة، علينا أيضًا أن نتظاهر بأنها لا تحفّزنا، وذلك قد يجبرنا على القيام بخيارات ما كنا لنختارها. فهل **حقّا كان جدّي** لا يملك أي شيء ليقوله لزوجته في ضوء حقيقة أنها ستموت عن قريب؟ **ألم تملك** هي حقًّا أي شيء تقوله لولديها كي يستعدا لحياتهما من دونها؟ إن هذا النوع من الصمت جارح، فلا نتشارك الحكمة، ولا نقطع الوعود، ولا نقدم الاعتذارات. وسرعان ما تتلاشى الفرصة لقول شيء مفيد لأحبابنا ، دون رجعة.

من ذا سيختار أن يغادر العالم في عزلة رهيبة كهذه؟ لعل هناك من يفعلون. ولكن لماذا يجدر بأي أحد أن يختار ذلك لشخص آخر؟

الثقة

استرقت جيسيكا السمع مؤخرًا على صديقتها لوسي وهي تكذب كذبة بيضاء: فقد كان لديها واجب اجتماعي أرادت التملّص منه، وسمعتها جيسيكا وهي تترك رسالة بريد صوتي لصديقة أخرى، تشرح فيه لماذا يجب أن تحدد موعدًا آخر للقائهما. وكان عذر لوسي مُختَلَقًا بالكامل –تضمّن شيئًا ما عن مرض طفلها– لكنّها كذبت بكل سهولة، وعلى نحو مقنع لدرجة دفعت جيسيكا للتساؤل إن كانت لوسي قد خدعتها فيما مضى. أما الآن، فكلما ألغت لوسي موعدًا، شكّت جيسيكا في أنّ لوسي لا تقول الحقيقة .

هذه التآكلات الضئيلة في الثقة مضرة بالأخص لأنها لا تُعالَج معظم الوقت، فلوسي لا تملك سببًا للظن بأن جيسيكا ناقمةٌ عليها، لأنها حقّا ليست كذلك، لكنّها ببساطة لم تعد تثق فيها كما كانت، بعد أن سمعتها تكذب دون حرج على صديقة أخرى. وبالطبع فلو كانت المشكلة (أو العلاقة) أعمق، لعل جيسيكا كانت ستقول شيئًا، ولكنها كالعادة تشعر بعدم الحاجة لتأنيب لوسي على أخلاقها. والحصيلة هي أن رسالة صوتية واحدة، تُركت لطرف ثالث، قوّضت قليلًا من هذه الصداقة.

لقد رأينا من قبل أن وجود الأطفال حولنا خطر لو رغب المرء في الكذب دون قيود، وإليك مثالاً آخر لو بقي لديك أي شك: علم صديقي دانيال مؤخرًا من زوجته أن زوجين آخرين سيأتيان ليقيما في منزلهما لمدة أسبوع، ومانع دانيال ذلك، فهذا الأسبوع في نظره سيكون دهرًا، خاصة أنه لم يكن على وفاق مع الزوج على الإطلاق. وقد أثار ذلك جدالًا وجيزًا بين دانيال وزوجته بحضور طفلتهما الصغيرة.

استسلم دانيال في النهاية، وسرعان ما حضر الزوجان إلى عتبة دارهما مع قدر هائل من الحقائب. وما أن دخل الزوج البغيض إلى المنزل، حتى عبّر عن امتنانه للسماح لهما بالبقاء في غرفة ضيوف دانيال.

قال دانيال وابنته بجانبه: «لا تقلق، تسعدني رؤيتك، نحب وجودك عندنا.»

فقالت ابنته: «ولكن أبي، ألم تقل إنك لا تريد أن يبقيا معنا؟»

فرد الأب: «لم أفعل.»

«بل فعلت، ألا تذكر؟»

«لا، لا... كان ذلك موقفًا آخر». أحسّ دانيال أنه لم يعد بوسعه النظر في عيون ضيوفه، ولم يجد فكرة أفضل من الأخذ بيد ابنته لإبعادها، قائلًا: «أين دفتر تلوينك؟«

ثمة كوميديا هنا، للآخرين فقط. ولكن ما الانطباع الذي يكوّنه أطفالنا عنا في مواقف كهذه؟ أهذا حقًّا هو المثال الذي نريد تقديمه لهم؟ إن إخفاقات النزاهة الشخصية ما أن تنكشف، فإنها نادرًا ما تُغتفر. يمكننا بالطبع أن نعتذر، أو أن نعتزم أن نكون أصدق في المستقبل، لكننا لا نستطيع محو الانطباع السيئ الذي تركناه في عقول الآخرين.

أكرر أنني لا أنكر أن اللباقة تلعب دورًا في لقاءات من هذا النوع، فلو قال دانيال: «لهذا وجدت غرفة الضيوف... كيف كانت رحلتك؟» لاستطاع حل الموقف دون أن يشوّه مشاعره بشكل فادح أمام ابنته، يمكن لمحادثات كهذه أن تكون محرجة مع ذلك، ولكن يمكن تجنب الإحراج والاضطراب الاجتماعي عمومًا عبر اتّباع مبدأ واحد: **لا تكذب**.

المديح الباهت

كانت هناك أوقات في حياتي كرّستُ فيها جهدي لمشروع كان فاشلًا ببساطة، واستثمرت فيه شهورًا –وفي إحدى الحالات **أعوامًا**– ربما كان التقييم الصادق فيها سيجنبني قدرًا هائلًا من الجهد المهدر. وفي أوقات أخرى، تلقّيت النقد الصريح تمامًا حين احتجت إليه، ما مكّنني من تغيير المسار بسرعة، عالمًا بأني قد تجنبت كثيرًا من الجهد الفائض والمرهق. ولا حاجة للمبالغة في وصف الفرق العظيم بين هذين المصيرين، نعم، قد يكون من المزعج أن يقال لنا إننا قد ضيعنا وقتًا، أو إننا لا نبلي حسنًا بقدر ما نتوقع، ولكن إن كان النقد سليمًا، فهو بالضبط أكثر ما نحتاج إلى سماعه كي نشق طريقنا في العالم.

لكننا كثيرًا ما يغرينا أن نشجّع الآخرين بمديح غير صادق، وبهذا فإننا نعاملهم كالأطفال، في حين نفشل في جعلهم مستعدين لمواجهة من سيحكمون عليهم كبالغين. لا أعني هنا أن علينا أن نتصيّد الفرص كي ننتقد الآخرين، ولكن حين يُطلب منا رأي صريح، فلن نسدي لأصدقائنا أي معروف حين نتظاهر بعدم ملاحظة العيوب في أعمالهم، خاصة حين يتحتّم على غير أصدقائهم أن يلاحظوا نفس تلك العيوب. فتجنيب الآخرين خيبة الأمل والإحراج هو شكل عظيم من الشفقة. وإن كان لدينا تاريخ طويل من الصدق، فإن مديحنا وتشجيعنا سيكون لهما قيمة في الواقع.

لدي صديق يعمل كاتبًا ناجحًا جدًّا، وفي بداية مسيرته، كتب قصة وجدتُ أنها مريعة، وأخبرته بذلك. لم يكن ذلك سهلًا عليّ، لأنه قضى سحابة عام وهو يعمل عليها، لكنها كانت الحقيقة (كما رأيتها). أما الآن، فحين أخبره بأني أحببت شيئًا مما كتبه، فهو يعرف أنني أحبه حقًا، وهو يعرف أيضًا أني أحترم موهبته بما يكفي لأن أخبره حين لا أحبّ ما كتبه، وأنا واثق بأن هناك أفرادًا في حياته لا يمكنه أن يقول ذلك عنهم، فلماذا أرغب في أن أكون منهم؟

الأسرار

إن الالتزام بالصدق لا يعني بالضرورة أن نفصح عن معلومات شخصيّة نفضّل أن نبقيها خاصّة، فلو سألك أحدهم عن مقدار ما تودعه في حسابك المصرفي، فلست ملزمًا أخلاقيًا بأن تجيبه، ولعل الحقيقة أن تُجيبه: «أفضّل ألاّ أقول.»

وهكذا فما من صراع، من حيث المبدأ، بين الصدق وكتمان الأسرار. ولكنّ الجدير بالذكر أن العديد من الأسرار —خاصة التي يُطلب منا كتمانها عن الآخرين— قد تجعلنا في موقف نضطر فيه إلى الاختيار بين الكذب وكشف معلومات خاصة، فالموافقة على حفظ السر تعني تحمل عبء ما، إذ على الأقل، فإنّ على المرء أن يتذكر ما يجب ألا يتحدث عنه، وقد يكون ذلك صعبًا وربما يقود إلى محاولات مرتبكة للخداع. وما لم يتطلب عملك أن تحتفظ بالأسرار —كما يفعل الأطباء، والمحامون، والأطباء النفسيون، وسائر الاختصاصيين ذوي الثقة باستمرار— فهو أمر يستحق التجنب.

كانت قد مضت على صداقة ستيفاني وجينا أكثر من عشرة أعوام حين بدأت ستيفاني تسمع إشاعات عن أنّ ديريك، زوج جينا، على علاقة بأخرى. ورغم أن ستيفاني لم ترَ نفسها قريبة بما يكفي من جينا كي تثير الموضوع مباشرة، فإن قليلًا من البحث كشف أن معظم الناس في دائرة معارفها يعرفون بخيانة ديريك، إلا جينا نفسها كما يبدو.

لم يكن ديريك متكتمًا، فقد كان يعمل في صناعة الأفلام، وكانت عشيقته ممثلة صاعدة. وذات مرة، حين سافر مع جينا والأولاد في إجازة، فإنه حجز لتلك المرأة غرفة في نفس الفندق. ثم عيّنها لاحقًا في منصب مساعدة الإنتاج، وهي الآن ترافقه في رحلات العمل، بل وحضرت فعاليات كانت جينا حاضرة فيها.

أرادت ستيفاني، بوصفها إحدى صديقات جينا، أن تفعل كل ما بوسعها لمساعدتها، ولكن ما الذي يمكن اعتباره صحيحاً في مثل هذا الموقف؟ لقد كانت صديقة من الدرجة الثانية، و قد جعلها الشخص الذي أخبرها بعلاقة ديريك تقسم على كتمان السرّ، كما أنّها كانت تعرف نساءً كن أقرب إلى جينا منها، فلماذا لم تقل أي منهن شيئًا؟

التقت ستيفاني بجينا عدة مرات أخرى —حيث كانتا تتناولان الغداء معًا بانتظام طوال أعوام— لكنها وجدت أنها لم تعد تحتمل رفقتها، حيث كانت جينا تتحدث عن إكمال منزلها الجديد، أو حول خططها لرحلة قادمة، وكانت ستيفاني تشعر بأنّ صمتها يسهمُ في انهيار صديقتها النهائي، وهكذا فقد استحالت المحادثة العادية بينهما إلى محنة من التظاهر بأن شيئا لم يكن.

وسواء أكانت جينا تعلم عن سلوك زوجها وتبقيه سرًّا، أم كانت تخدع نفسها، أم مجرد ضحية لخبثه وتعاون الآخرين معه، فإن تظاهر ستيفاني لم يعد يختلف عن الكذب، وسرعان ما تباعدت الصديقتان ولم تتحادثا لأعوام، وكأنّ الأمر حصلَ بفعل السحر.

كانت ستيفاني تعرف عدة أشخاص على علم مباشر بخيانات ديريك، كانوا قد قطعوا علاقتهم معه بصمت، تاركين جينا في ظلام الجهل (أو راضين لها بأن تبقى هناك). وقد راودني شعورٌ غريب بأن ترى شخصًا محاطاً بالأصدقاء، يعيش تحت جبل من الأكاذيب والنميمة، دون أن يجد صديقًا في العالم بأسره

يخبره بالحقيقة. وهكذا كُتب النصر النهائي لديريك، فالذين لم يعودوا قادرين على استمرار علاقتهم به بسبب معاملته غير المقبولة لزوجته، أعانوه رغم ذلك على استمرار أكاذيبه، وتخلوا عن زوجته بفعلهم ذلك.

الكذب على حافة الخطر

كان عمانوئيل كانط يعتقد أن الكذب لا أخلاقي في كل الحالات، حتى حين تحاول أن تمنع عن طريقه قتل شخص بريء، وكما هو الحال مع العديد من آرائه الفلسفية، فإن موقف كانط تجاه الكذب لم يبرهِن عليه بقدر ما افترضه، وكأنه حكم ديني. ومع أن عبارة «**لا تكذب أبدًا**» تمتاز بوضوحها دون شك، فإن قاعدة كهذه في الواقع قد تنتج سلوكًا لا يقبل به إلا شخص مختلٌ نفسيا.ً

إنّ تحريم الكذب على نحو شامل غير منسجم أخلاقيًا إلا عند شخص مسالمٍ على نحو مثالي، فلو كنت ترى أنه يجوز في بعض الحالات أن تجرح أو تقتل شخصًا دفاعًا عن النفس، أو عن شخص آخر، فلا يعقل أن تستبعد الكذب في نفس الظروف.[12]

لا أملك أي سبب لأخذ كانط على محمل الجد في هذه النقطة، لكنّ ذلك لا يعني أن تبرير الكذب أمر سهل. فالكذب، حتى كوسيلة لدرء العنف، كثيرًا ما يغلق الباب في وجه أفعال التواصل الصادق التي قد تكون أكثر كفاءة، أو يمكن أن تُحدث تطورات أخلاقية مهمة.

في تلك الظروف التي نقضي فيها بأن من الضروري **بوضوح** أن نكذب، نكون قد حكمنا إجمالًا بأن الشخص الذي سنخدعه يمثل خطرًا علينا، ولا يمكن التفاهم معه عبر الاستعانة بالحقيقة. وبعبارة أخرى، فقد حكمنا على فرصة تأسيس علاقة صادقة معه بأنها معدومة. وفي حياة معظمنا، نادرًا ما تظهر ظروف كهذه، هذا إذا ظهرت من الأساس، وحتى حينما تظهر، فكثيرًا ما يخطر ببالنا أن الكذب هو المهرب الأسهل (والأقل من مثالي أخلاقيًّا.)

لنأخذ حالة متطرفة كي نجعلها نموذجًا لأمثالها في هذا الصنف: ثمة قاتل معروف يبحث عن ولد تؤويه أنت في منزلك، والقاتل يقف ببابك ويرغب في معرفة إن كنت قد شاهدت ضحيته المقصودة. إن إغواء الكذب مفهوم تمامًا، لكنّ الكذب وحده قد يؤدي إلى نتائج أخرى لا تريدها، فلو قلت إنك رأيت الولد وهو يتسلق سورك ويمضي خلال الحي، فقد يغادر القاتل، لكنه قد يقتل طفل شخص آخر. وحتى في هذه الحالة البائسة، فلعل الكذب سيكون أفضل آمالك لحماية أرواح الأبرياء، لكنّ ذلك لا يعني أن شخصًا أشجع أو أقدر منك ما كان ليصل لنتيجة أفضل مستعينًا بالحقيقة.

لا يمكن اعتبارُ الصدق في مثل هذه الظروف إذعانًا، ولعلّ الحقيقة في هذه الحالة ستكون: «لن أخبرك حتى لو كنت أعرف، ولو خطوت خطوة أخرى، فسأضع رصاصة في رأسك». ولو بدا أن الكذب هو الخيار الوحيد، نظرًا لخوفك أو ضعفك الجسدي، فذلك قد ينقل عبء مواجهة الشر إلى الآخرين، صحيح أن جيرانك قد يكونون أفضل استعدادًا منك لتحمل هذا العبء، لكن **أحدهم** لا بد أن يتحمله في النهاية. وإن لم كن ثمّة أحد، فعلى الشرطة أن تخبر المجرمين بالحقيقة: لن يتمّ التسامح مع سلوكهم .

لكنّ الأكثر شيوعًا من ذلك بكثير هو أن نجد أنفسنا في مواقف قد تقودنا فيها الصراحة، رغم إغراء الكذب، إلى تكوين صلات بأناس ربما كانوا سيصبحون أعداء لنا. وفي هذا الصدد، أتذكّر لقاءً جمعني بضابط جمارك أميركي بعد عودتي من أول رحلة لي إلى آسيا.

كان ذلك عام 1987، لكن الوضع بدا وكأني خارج من صيف الحب:* فقد كنت في العشرين من العمر، وشعري يصل إلى كتفيّ، مرتديًا ملابس شبيهة بسائق ريكشا (هي عربة بعجلتين يجرها إنسان تستخدم للنقل في بعض مناطق آسيا) هندي. وفي نظر القائمين على تطبيق قوانين المخدرات في بلادنا، فإنّ أخذ الحيطة والحذر كان يفرض إخضاع حقائبي لتمحيص شديد. ولحسن الحظ، لم يكن لديّ ما أخفيه.

«من أين أتيت؟» سألني الضابط، لامحًا حقيبة ظهري بتشكّك.

أجبت: «الهند، نيبال، تايلاند...»

«هل تعاطيت أي مخدرات حين كنت هناك؟»

الواقع أني فعلت، وكان إغراء الكذب واضحًا، فلماذا أتحدث إلى ضابط جمارك حول تعاطيّ مؤخرًا للمخدرات؟ لكني لم أملك سببًا واقعيًّا لإخفاء الحقيقة، سوى المخاطرة بأن يقود ذلك إلى تفتيش حقائبي (وربما تفتيشي شخصيًا) بنحو أكثر تفصيلًا مما شرع فيه الضابطُ أصلًا.

فقلت: «نعم».

كفّ الضابط عن التفتيش في حقائبي ونظر إليّ. «أيًّا منها تعاطيت؟»

«دخنت الحشيش بضع مرات... وجربت الأفيون في الهند».

«الأفيون؟»

«أجل».

«الأفيون أم الهيروين؟»

«لقد كان الأفيون».

«لا يسمع المرء كثيرًا بالأفيون هذه الأيام».

«أعلم ذلك، فقد كانت أول مرة أجربه فيها».

«هل تحمل أي مخدرات معك الآن؟»

«لا».

رمقني الضابط بحذر لبرهة ثم عاد لتفتيش حقيبتي .

---

* **صيف الحب:** ظاهرة شبابية حصلت في صيف عام 1967، حيث تمركز حوالي مائة ألف شاب وشابة في سان فرانسيسكو وهم يرتدون ملابس مميزة للهيبيين، يتعاطون المخدرات، ويحتفلون بالموسيقى المصاحبة لذلك. كانت هناك تجمعات معاصرة لذلك في مدن غربية أخرى، لكن تجمع سان فرانسيسكو كان الأشهر. – المترجم

وبالنظر لطبيعة محادثتنا، تقبّلت فكرةَ أني سأظل هناك لوقت طويل جدًّا، ولذا وقفت صابرًا كالشجرة. وكان ذلك في صالحي، لأنّ الضابط كان الآن يفتش متعلقاتي وكأن أي غرض منها —كفرشاة أسنان، أو كتاب، أو مصباح يدوي، أو قطعة من حبل نيلون— قد يكشف عن أعمق أسرار الكون.

«كيف كان الأفيون؟» سألني بعد وهلة.

أخبرته بذلك، وفي الحقيقة، فقد أخبرت هذا المسؤول بمعظم ما أعرفه عن استخدام المواد المغيرة للوعي في العشر دقائق اللاحقة .

انتهى الضابط أخيرًا من بحثه وأغلق حقائبي، وكان هناك أمر واضح تمامًا في نهاية لقائنا، وهو أنّ كلانا أحسّ بشعور جيّد حيال ما جرى .

ربما كان شخص آخر أكثر كيشوتية –غير واقعي– سيشعر بأنه عارٍ. لست على يقين بأني قد أجري اليوم نفس المحادثة بالضبط، صحيح أنني لن أكذب، ولكن لعلّني لن أبذل جهدًا كهذا كي أفتح قناة تواصل جديدة كهذه. ومع ذلك، ما زلت أرى أن الاستعداد للصدق —خاصة حول أمور قد يُتوقع أن المرء يخفيها— كثيرًا ما يقود إلى لقاءات أكثر إيجابيّة مع سائر البشر.

بالطبع لو كنت أحمل مخدرات ممنوعة، لكان موقفي حينها مختلفًا جدًّا، فمن أسوأ الأمور حول خرق القانون أنه يجعلك خصمًا لعدد غير محدود من الناس، وذلك من أبرز الآثار العديدة الهدامة للقوانين الجائرة: فهي تغري أناسًا مسالمين وصرحاء (في العادة) بالكذب، كي يتجنبوا العقاب على أمر لا شائبة فيه أخلاقيًّا.

المحاسبة العقلية

إحدى أكبر المشكلات التي تواجه الكاذب هي أن عليه تذكّر أكاذيبه، وبعض الناس أفضل من غيرهم في ذلك. إذ يمكن للسيكوباثيين أن يتحملوا عبء المحاسبة العقلية دون أي قلق يذكر. وليس ذلك بعجيب، فهم **سيكوباثيون**، لا يهتمون بالآخرين ومستعدون جدًّا لقطع العلاقات متى دعت الحاجة. وبعض الناس عمالقة في عبادة الذات، لكنّ الكذب يلقي بتكلفة نفسانية دون شك على سائر الناس.

الأكاذيب تلد أكاذيب، وخلافًا للحقيقة، التي لا تتطلب منا مزيدًا من الجهد، فإنّ الأكاذيب تحتاج إلى حمايتها باستمرار من الاصطدام بالواقع. فحين تقول الحقيقة، فلا يوجد شيء ينبغي عليه أن تذكره، فالعالم نفسه يصبح ذاكرتك، ولو طرأت أي أسئلة، فيمكنك دومًا أن تحيل الآخرين إليه. بل يمكنك حتى أن تعيد تقييم وقائع معينة وتغير آراءك بصدق، وأن تناقش حيرتك، وصراعاتك، وشكوكك بصدق مع كل شخص قادم. فالالتزام بالحقيقة يطهّرك طبيعيًّا من الخطأ.

أما الكاذب فعليه أن يستذكر ما قاله، ولمن قاله، وأن يُعنى بإدامة أباطيله في المستقبل. وقد يتطلب ذلك قدرًا هائلًا من الجهد، وذلك كله على حساب التواصل الأمين والانتباه التام. فعلى الكاذب أن يقيّم كل معلومة جديد، أيًّا كان مصدره، كي يعرف إن كان سيضر بالواجهة التي بناها. وتتراكم كل هذه المتاعب، بغض النظر عن اكتشاف أي أحد أنه كان يكذب.

لو قلت ما يكفي من الأكاذيب، فإن الجهد اللازم بذله للاستمرار في خداع الآخرين لا يمكن أن يستمرّ للأبد، ومع أنك قد لا توصف على نحو صريح بأنك مخادع، فإن معظم الناس سيستنتجون،

لأسباب قد لا يستطيعون تحديدها، أنك لست جديرًا بثقتهم. وسوف تبدو أشبه بشخص يحوم دومًا حول الحقيقة، لأنك تفعل ذلك يقينًا. يعرف معظمنا أناسًا كهؤلاء، ولا أحد يصارحهم بالحقيقة أبدًا، لكنّ كل من حولهم يبدؤون بمعاملتهم كما لو كانوا كائنات خيالية، وكثيرًا ما يتمّ نبذ أناس كهؤلاء بهدوء، ولأسباب ربما لن يفهموها أبدًا.

في الواقع، كثيرًا ما يتنامى الشك لدى **طرفي** الكذبة، فالأبحاث تشير إلى أن الكاذبين يثقون بمن يكذبون عليهم أقل مما قد يفعلون في أي حالة أخرى، وكلما ازداد الضرر الناتج عن أكاذيبهم، قلت ثقتهم، أو حتى مودتهم، تجاه ضحاياهم. الأمر يبدو وكأن الكاذبين، حمايةً منهم لل "الأنا" الخاصة بهم وتفسيرًا لسلوكهم على أنه مُبرَّر، يميلون إلى تحقير من يقصّون عليهم الأكاذيب.[13]

النزاهة

ما الذي يعنيه أن تكون نزيهًا؟ تتكون النزاهة من عدة أمور، لكنها عادة ما تتطلب منا تجنب السلوك الذي يقود بسهولة إلى الشعور بالخزي أو الندم. والرقعة الأخلاقية هنا تشمل ما هو أبعد من مسألة النزاهة، ولكن لكي نكون نزيهين بحق، فإنّ علينا ألا نشعر بالحاجة إلى الكذب بشأن حياتنا الشخصية.

الكذب يعني نصب حاجز بين الحقيقة التي نعيشها والإدراك الذي كوّنه الآخرون عنا. والإغراء بفعل ذلك كثيرًا ما ينشأ من تصور أن الآخرين سينتقدون سلوكنا، وكثيرًا ما يكون لديهم سبب وجيه لذلك.

خذ أي صحيفة وألقِ نظرة على المشكلات التي يخلقها الناس لأنفسهم —ثم يحاولون إخفاءها— بالكذب. إنّ من المذهل كيف أنّ الناس، بكل بساطة، يدمرون زيجاتهم، وأعمالهم، وسمعتهم عبر قول شيء وفعل شيء آخر. لانس آرمسترونغ، وتايغر وودز، وجون إدواردز، وإليوت سبتزر، وأنتوني وينر، هؤلاء كلهم رجال تثير أسماؤهم أشهر صور للتدمير الشخصي، لكنّ الخداع هو ما رتّب المشهد لإهانتهم، إذ يمكن للمرء أن يطلّق زوجته دون الحاجة إلى إصدار اعتذار علني، بل يمكن للمرء أن يتعاطى العقاقير الممنوعة، أو يحيا حياة فضائحية، أو حياة فوضى جنسية ، دون أن يدفع الأثمان التي دفعها هؤلاء. فحياة العديد من الناس تكاد تستعصي على الفضيحة، أما نقطة الضعف فتأتي من التظاهر بأمر لا يمثلك.

الأكاذيب الكبرى

يدرك معظمنا اليوم بكل ألم أن ثقتنا في الحكومة، والشركات الكبرى، وسائر المؤسسات العامة قد قوضتها الأكاذيب.

فقد أشعل الكذب حروبًا وأطال من أمدها: فقد كان حادث خليج تونكين في فيتنام، وكذلك التقارير الزائفة عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، مثالين قاد فيهما الكذب (على صعيد ما) إلى صراع مسلح ربما ما كان ليحدث دونه. وحين تجلّت الحقيقة في النهاية، فإن أعدادًا هائلة من الناس ازدادوا شكًّا في السياسة الخارجية الأميركية، بل وصل العديد منهم إلى حد التشكيك في شرعية أي تدخل عسكري، مهما كان الدافع المعلن له.

كما انتُقِدت شركات الأدوية على نطاق واسع بسبب تضليل الجمهور بشأن سلامة أدويتها وكفائتها، ولهذا التضليل عدة درجات، لكن بعضًا منه بالتأكيد كان نتيجة لمحاولات مقصودة للتلاعب بالبيانات. فكثيرًا ما تقارن الأدوية الجديدة بالعلاج الوهمي بدلًا من العلاجات المتعارف عليها– وحين تقارن بدواء موجود، فكثيرًا ما يُقدّم هذا الدواء بجرعة خاطئة– والأفدح من ذلك أن شركات الأدوية قد اعتادت التنكّر للنتائج السلبية. يذكر عالم الأوبئة بن غولديكر أنه فيما يخص أدوية معينة، فإن أكثر من 50% من بيانات التجارب قد حُجبت، وبالتالي فإن التجارب الممولة من جهات منتمية لهذه الصناعة أكثرُ ميلاً بأربعة أضعاف إلى أن تظهر منافع أي دواء جديد.[14]

لقد قادت الأكاذيب الكبرى الكثير من الناس للشك تلقائيًّا في ذوي المناصب المهمة، ولذا فمن المستحيل الآن أن نقول أي شيء ذي بال عن تغير المناخ، أو تلوث البيئة، أو التغذية البشرية، أو السياسة الاقتصادية، أو النزاعات الخارجية، أو الطب، أو عشرات الموضوعات الأخرى دون أن يعبر قسطٌ معتبر من جمهورنا عن شكوك خامدة حتى في أرقى مصادر معلوماتنا سمعة. ويبدو أن حوارنا العام سيظل محاطًا للأبد بنظريات المؤامرة.[15]

خذ مثلًا الخوف الشائع من لقاحات الأطفال. فقد نشر الطبيب أندرو ويكفيلد عام 1998 دراسة في مجلة The Lancet تربط بين لقاح الحصبة ولقاح النكاف ولقاح الحصبة الألمانية (MMR) وبين التوحّد. وقد حكم على الدراسة بعدئذ بأنها «تزوير مفصل»، كما ألغيت رخصة ويكفيلد الطبية.[16]

ربما كانت عواقب خديعة ويكفيلد سيئة بما يكفي، لكن تأثير الديمومة لأكاذيب كبرى أخرى جعل علاج الضرر الذي أحدثه مستحيلًا. فنظرًا لأن الشركات والحكومات تكذب أحيانًا، إما تجنبًا منهم لطائلة القانون أو تهربًا من رعب العامة، فقد بات من الصعب للغاية أن نروّج للحقيقة حول لقاح (الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية). انخفضت معدلات التلقيح –خاصة في المجتمعات المرفهة حسنة التعليم– وأصيب بعض الأطفال بالأمراض بل وماتوا جرّاء ذلك.

لعل إحدى الحقائق المحزنة حول النفسانية البشرية فاعلة هنا على نحو يصعّب من تفنيد الأكاذيب ما أن تظهر إلى العالم: إذ يبدو أننا نميل لتذكر العبارات على أنها حقائق حتى بعد تكذيبها. فعلى سبيل المثال، لو انتشرت شائعة تقول بأن سياسيًّا شهيرًا أغمي عليه ذات مرة خلال خطاب انتخابي، وانكشف لاحقًا أن هذه القصة زائفة، فإن نسبة معتبرة من السكان ستتذكرها كحقيقة، حتى لو تعرضوا لها أول مرة في سياق تفنيدها بذاته، ويعرف ذلك في علم النفس «بتأثير الحقيقة الوهمية»، فالألفة تولّد المصداقية.

للمرء أن يتخيل ظروفًا، ربما في أزمان الحرب، قد يكون فيها كذب المرء على أعدائه ضروريًّا، خاصة لو كان هناك احتمال لتقليل الخسائر في أرواح الأبرياء عن طريق نشر الأكاذيب. ومن المؤكد أن الحدّ الفاصل بين هذه الظروف والعديد من الحالات التي نوهنا بها أعلاه قد يكون صعب التحديد، خاصة لو تطلب كذب المرء على أعدائه أن يكذب على أصدقائه أيضًا. وفي أحوال كهذه، فقد لا نتعرّف على الكذبة الخيّرة إلا بأثر رجعي. لكنّ الحرب والتجسس ظروف إما تتقطع فيها العلاقات البشرية أو لم تؤسس من البداية؛ ولذا فإن القواعد الأساسية للتعاون لم تعد تنطبق على هذه الحالات. وما أن يبدأ

أحدهم بإلقاء القنابل، أو تدمير البنية التحتية للبلاد بهجمات اختراق، فإنّ الكذب سيصبح مجرد سلاح آخر ضمن العتاد.

إن الحاجة إلى أسرار الدولة واضحة، ولكنّ حاجة الحكومات إلى الكذب على شعوبها تبدو لي معدومة تمامًا. فالخداع الحكومي المبرر أشبه بالسراب الأخلاقي: ما أن تظن أنك وصلت إليه، حتى تشير الحقائق عادة إلى شيء آخر. والضرر اللاحق حين تنكشف أكاذيب من هذا النوع يصعبُ إصلاحه جدًّا.

أظن أن قول الأكاذيب الضرورية سيكون أمرًا نادرًا إلا لدى الجواسيس، لو سلّمنا بأن التجسس مسوّغ أخلاقيا في عالم اليوم، حيث يشاع بأن على الجواسيس أن يكذبوا حتى على أسرهم وأصدقائهم. كلي ثقة بأني لن أستطيع العيش شخصيًّا على هذا النحو، مهما كانت القضية عادلة. فدور الجاسوس يبدو لي أشبه بتضحية مطلقة بالأخلاق الشخصية من أجل خير أعظم، حقيقيًّا كان أو متخيلً، إنه نوع من حرق الذات أخلاقيًّا.

لكني أظن أنه لا يسعنا أن نستمدّ نصائح يومية من حياة الجواسيس إلا بقدر ما نستمد مثلًا من مغامرات رواد الفضاء. فمثلما لا يحتاج معظمنا إلى القلق على كثافة عظامنا في غياب الجاذبية، فإننا لا نحتاج إلى التفكير فيما إذا كانت أي عبارة نقولها ستهدد الأمن القومي، فأخلاق الحرب والتجسس هي أخلاق الطوارئ، ولذا فإن مداها محدود بالضرورة.

الخلاصة

كما كان الحال مع **آنا كارنينا، ومدام بوفاري، وعطيل**، فإنه كذلك في الحياة، فمعظم أشكال السيئات السرية والشرور العلنية تثيرها وتوقدها الأكاذيب. فأفعال كالزنا وسائر الخيانات الشخصية، والاحتيال المالي، والفساد الحكومي —وحتى القتل والإبادة— عادة ما تتطلب نقصًا أخلاقيًّا إضافيًّا: هو الاستعداد للكذب.

كأن معنى الكذب، بحكم التعريف، هو رفض التعاون مع الآخرين. فهو يختزل انعدام الثقة والمصداقية في فعل واحد، ويمثل فشلًا في التفهّم وكذلك عدم استعداد لأنْ تُفهم، فالكذب هروب من العلاقة.

إننا بالكذب نحرم الآخرين من رؤيتنا للعالم، وخداعنا لا يؤثر فقط على الخيارات التي يتخذونها فحسب، فكثيرًا ما يحدد الخيارات التي **يمكن** أن يتخذونها أيضًا، وبطرق لا يمكننا دومًا توقعها، فكل كذبة هي اعتداء على استقلالية من نكذب عليهم.

إننا بالكذب على شخص واحد، ننشر الأكاذيب ضمنيًّا بين كثيرين غيره، بل وفي مجتمعات بأسرها. كما نجبر أنفسنا على خيارات لاحقة —سواء للحفاظ على الخديعة أم لا— يمكن أن تزيد حياتنا تعقيدًا. وهكذا، فإن كل كذبة ستهيمن على مستقبلنا. لا يمكننا أن نحدد متى أو كيف ستصطدم مع الواقع، مما يضطرنا إلى المزيد من الجهد لإدامتها، أما الحقيقة فلا تحتاج إلى مثل هذه العناية، بل يمكن ترديدها ببساطة.

إن أكاذيب الأقوياء تدفعنا نحو الشك في الحكومات والمؤسسات، وأكاذيب الضعفاء تجعلنا جامدين تجاه معاناة الآخرين، وأكاذيب نظريات المؤامرة تثير الشكوك في مصداقية كاشفي الأسرار، حتى حين

يقولون الحقيقة.[17] فالأكاذيب هي المكافئ الاجتماعي للنفايات السامة: إذ يمكن لانتشارها أن يؤذي الجميع.

كيف يمكن لعلاقاتك أن تتغير لو اعتزمت ألا تكذب مجددًا؟ أي حقائق حول شخصك قد تطفو على السطح فجأة؟ أي نوع من الأشخاص ستتحوّل إليه؟ وكيف سيغير ذلك الناسَ من حولك؟
الأمر يستحق المعرفة .

الملحق الأول: حوار مع رونالد أ. هوارد

مثلما كتبت في المقدمة، فقد كان رونالد أ. هوارد أحد أساتذتي المفضلين في الجامعة، وساهمت مساقاته عن الأخلاق، والنظم الاجتماعية، وصنع القرار على نحو كبير في تشكيل آرائي في هذه الموضوعات. هوارد مسؤول عن التعليم والبحث في برنامج تحليل القرارات بقسم علوم الإدارة والهندسة بجامعة ستانفورد، وهو أيضًا مدير مركز القرارات والأخلاق في القسم، الذي يدرّس كفاءة الأنساق الاجتماعية وأخلاقياتها. وقد أعدّ التعريف الخاص بمهنة تحليل القرارات عام 1964، ومن ثم أشرف سنويا على عدة رسائل دكتوراه حول تحليل القرارات. وتشمل خبرته على العشرات من مشاريع تحليل القرارات التي تتراوح بين كل مجالات التطبيقات عمليًّا، من التخطيط الاستثماري إلى استراتيجية البحث، ومن إضعاف الأعاصير إلى طمر النفايات النووية. وقد عمل مديرًا مؤسسًّا ورئيسًا لمجموعة القرارات الاستراتيجية، وهو يرأس حاليًا مؤسسة تعليم القرارات، وهي منظمة مكرسة لإيصال مهارات القرار إلى الشباب. كما أنه عضو في الأكاديمية الوطنية للهندسة، وزميل في معهد بحوث العمليات وعلوم الإدارة (INFORMS)ومعهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات ،(IEEE) وحائز على ميدالية رامزي لعام 1968 من جمعية صنع القرار، وشارك مع كلينت كورفر في تأليف كتاب **الأخلاق للعالم الواقعي**.

ولأجل الطبعة الورقية من هذا الكتاب، تفضّل بالحديث معي حول أخلاقيات الكذب، وفيما يلي نسخة محرّرة من محادثتنا.

* * *

هاريس: أولًا، دعني أقول إنني أثمّن بشدة تخصيصك وقتًا لإجراء هذه المقابلة، وكما تعرف أو ربما لا تعرف، فإن مساقاتك عن الأخلاق في ستانفورد كانت محورية في تطوري الأخلاقي والفكري، كما كانت بالتأكيد محورية لكثيرين غيري، ولهذا يشرفني أن أكون قادرًا على تقديم صوتك لقرائي.

هوارد: يسرني ذلك.

هاريس: لنتحدث عن الكذب. أظن أنه يحسن بنا البدء بالحالة الأصعب على من يتوخّى قول الحقيقة: النازيون على بابك، وأنت تُخفي آن فرانك في علّية بيتك،* كيف تفكر في المواقف التي يفتح الصدق فيها الباب –حرفيًّا في هذه الحالة– أمام كارثة أخلاقية؟

هوارد: كما أشرت، فهذه مواقف من الصعب جدًّا التأمل فيها، والمرء يأمل أن يكون قادرًا على إحداث فارق حينها. بعبارة أخرى، فلو كنت أنت بوذا أو أيّ شخص لامعًا آخر، فلعل إحدى صور الحقيقة قد تنقذ الموقف. لعلك تذكر قصة لقاء بوذا بقاتلٍ قتل ألف شخص، وبدلًا من تجنبه، قال له:

---

* **آن فرانك:** فتاة يهودية ألمانية عاشت لعام ونصف مختبئة في الطابق العلوي من بيت في أمستردام، حتى قبض عليها النازيون مع أمها وأخواتها وسيقت إلى معتقل بيرغن بيلسن عام 1944، وتوفيت بعد أشهر بوباء التيفوس. اشتهرت بعد وفاتها بالمفكرة التي نشرها والدها ليو فرانك وأصبحت من أهم الشهادات على تجربة يهود أوروبا الغربية للاضطهاد الحديث على الرغم من الشكوك والانتقادات التي طرحت على مصداقية هذه المفكرة ودقة تفاصيلها.

«أعلم أنك ستقتلني، ولكن هل يمكنك أولًا قطع الغصن الكبير من تلك الشجرة؟» فعل القاتل ذلك، ثم قال بوذا: «شكرًا لك، هل يمكنك إعادته الآن؟» وهكذا –كما تقول القصة– اكتشف القاتل فورًا أنه كان يلعب اللعبة الخاطئة، وأصبح متنورًا وراهبًا.

لا يُستبعد أن يكون بوسع المرء أن يتلاعب حتى بأشد المواقف ضيقًا، وأعتقد أن فعل ذلك قد يمثل نوعًا من الكمال الأخلاقي. بالطبع، فإنّ من الصعب جدًّا تخيّل معظمنا وهم يفعلون ذلك والنازيون عند عتبة دارهم، لكنّ هناك حالات متطرفة لا يتضح فيها، اعتمادًا على المشاركين، إن كان قول الحقيقة سيقود دومًا إلى نتيجة سيئة.

هاريس: أتفق معك، ولكن لعلّ ذلك يفرض سقفًا عاليًا جدًّا على معظمنا في معظم الأوقات، والأهم من ذلك أنه يفرض بالتأكيد سقفًا عاليًا جدًّا على أي مجموعة عشوائية من النازيين، إذ يبدو أن هناك مواقف لا بد أن يعترف المرء فيها من البداية بأنه لا يواجه ذكاءً أخلاقيًّا يمكن التفاهم معه.

لكني أفهم نقطتك، فالمرء لو وصل لهذه القناعة –أن هؤلاء ليسوا بالنازيين الذين يمكنني تنويرهم– فسوف يغلق الباب في وجه أصناف معينة من التقدم الأخلاقي. أتذكّر مثلًا أني سمعت قصة حاخام كان يتلقى اتصالات تهديد من عنصري أبيض، وبدلًا من إغلاق الهاتف أو الاتصال بالشرطة، فقد استمع الحاخام بصبر لهذا الرجل في كل مرة اتصل فيها، وفي أي ساعة كانت. وأخيرًا بدآ يجريان محادثة حقيقية، وفي النهاية استطاع الحاخام التقدم والتسلُّل إلى نفس الرجل، حيث بدأ العنصري الأبيض بالحديث معه عن كل مشكلات حياته، حتى أنهما التقيا وأصبحا صديقين. يود المرء بالتأكيد أن يصدّق بأن تطورات كهذه ممكنة.

ورغم ذلك، فقد يكون الخطر في بعض المواقف واضحًا، والوقت المتاح أمام الإنسان للتصرّف قصيراً، إلى الحدّ الذي يدفع المرء إلى أن يميل إلى اعتبار العدو المعلن عدوًا حقيقيًّا.

هوارد: بالطبع. وبعض الناس يتعاملون مع ذلك عبر التفكير بنوع من الهرمية، فقد يقولون: «حسنًا، لا أرغب في قتل الناس، لكني قد أقتل دفاعًا عن النفس، لا أرغب في السرقة، لكني قد أسرق كي أبقي أحدهم حيًّا، لن أكذب في العادة، لكني سأفعل ذلك للحفاظ على ملكية أحدهم أو لإنقاذ حياته»، وهلم جرًا، وهذا نهج آخر لمعالجة ذلك.

هاريس: هذا هو النهج الذي تناولت به الأمر في كتابي، ففي الأساس، نظرت إلى الكذب في هذه الحالات بوصفه امتدادًا لتدرّج القوة التي قد يستخدمها أحدهم ضد شخص يبدو أنّ الحوار العقلاني لم يعد ممكنًا معه، فلو كنت مستعدًّا لإطلاق النار دفاعًا عن نفسك ضد شخص جاء كي يؤذيك أنت أو شخصًا تُعنى بأمره، أو مستعدًّا للكمه في فكّه، فسيبدو أخلاقيًّا أن تستخدم قوة أقل من ذلك –أي مجرد الكلام– كي تصد نواياه السيئة.

هوارد: أرى أن ذلك حلٌّ عملي جدًّا. لقد بدأنا نتحدث هنا عن أي قسم من شرعة المرء الأخلاقية الخاصة يستعد المرء لفرضه على الآخرين، الذي أشير إليه بحكمة «الناس المسالمون الصرحاء لديهم الحق في أن يتركوا بمفردهم». ومما يبسط الأمور أن تسأل: «ماذا لو انتهك أحدهم هذه الحكمة بعدم

التصرف بطرق أفضّل أن يتصرف الناس وفقها، كترك الأبرياء بمفردهم وما شابه؟» سأحتفظ إذن بحقي في الدفاع عن النفس. فلو حاول أحدهم قتلي، سأستخدم أقل قوة ضرورية لردعه، وقد قرأت مقالتك[18] حول ذلك، وأتفق معك تمامًا.

المستوى التالي هو السرقة، فمن نافلة القول إني لو استطعت سرقة سلاح من شخص كان ينوي قتلي، فلا بأس بذلك. ولو لم أستطع تغيير الموقف كما قد يفعل شخص أكثر استنارة مني —ليصبح سياقًا حقيقيًّا للتعليم— فسوف أكذب، سأستعمل عندها أقل قدر ضروري من التمويه كي أبعد المشكلة عني.

على أحد طرفي الخط، قد تكون مفرط التفاؤل تجاه الناس. ولكنّ الواقع هو أن هناك أشخاصًا لا ينوون خيرًا في كل النواحي، ولن أقْدم على مساعدتهم في انتهاك حق الآخرين في أن يُتركوا بمفردهم، وسأفعل كل ما هو ضروري لتجنب ذلك.

هاريس: من الواضح أن حالة آن فرانك لا تحدث كثيرًا في السياق الطبيعي للحياة، لكنّ هناك العديد من المواقف المقلقة في الحياة التي قد يجد الناس فيها الكذب أمرًا مغريًا. حين طلبت من القراء تعقيبات على الطبعة الأولى من **الكذب**، تلقيت العديد من المواقف التي وجد الناس فيها أنهم يكذبون لأسباب اعتبروها نبيلة بالكامل، وإحدى الحالات التي أريد منك التأمل فيها تتعلق بطفل مصاب بمرض قاتل.

لم يبقَ من عمر طفلك الكثير، ولديه بالطبع أسئلة حول متى يموت وماذا يحدث بعد الموت، لنقل إنه بالنظر لما قاله الطبيب، فأنت تظن أنه لم يبقَ لطفلك سوى شهرين فقط. وأنت تعتقد بأن حياة الجميع تنطفئ بعد الموت، ولن تريا بعضكما بعضًا من جديد مطلقًا. ويصعُب على العديد من القراء تجنب الاستنتاج القائل بأن منح إجابة زائفة، ولكن معزيّة، لأسئلته، قد تجعل الشهرين الأخيرين من حياة طفلك أسعد مما ستكون بدونها.

هوارد: حسنًا، هذه حالة سأتّخذ فيها موقفًا أكثر صلابة، لقد حضر مساقاتي أشخاص يتعاملون بانتظام مع المحتضرين، وكانت نصيحتي لهم واحدة دومًا: عليك أن تقول الحقيقة كما هي في اعتقادك. وأهم شيء يجب تحديده هو: ما هي الحقيقة؟ ولذا فعليك سؤال الطبيب: «كم بقي لديه من الوقت يا دكتور؟» والجواب الصادق قد يكون «حسنًا، كما تعلم، بعض الناس يفاجئوننا، وبعضهم يرحل أسرع. لا يمكننا أن نخبرك بالمدة بالضبط، فالبعض يعيش شهرين، لكنّ قلة يعيشون وقتًا أطول، وهكذا». وهذه هي الحقيقة، ولو قلت لشخص ما «كلا، سوف تشفى قريبًا»، مع أنه قد يموت خلال بضعة أشهر، فأنت ستحرمه من فرصة فعل تلك الأشياء التي قد يرغب فيها خلال وقته الضيق، وفي معظم الأحيان، فإنهم يعرفون أنهم سيموتون، لتدعهم يرحلون بسلام.

ذات مرة، شارَكنا رجل في لقاء جماعي بحقيقة أن ابنه اليافع مصاب بمرض قاتل. ثم قال «أتعلمون؟ الأمر محزن حقًّا، فهو حين يلوّن الصور، لا يستخدم إلا أقلام التلوين السوداء». ثم تحدث بعد أسبوع مجددًا إلى المجموعة، قائلًا: «أتعلمون؟ اكتشفت أني كنت أبعد نفسي عن ابني لأني سأفتقده جدًّا بعد أن يموت»، وقد شارك ابنه بهذه الحقيقة، قائلًا له: «أحبك جدًّا، وسأفتقدك». وماذا حصل بعدها؟ لقد أخبرنا بأن ابنه بات يستخدم كل الألوان ثانية.

إن ما فهمته من الناس الذين يتعاملون مع أطفال يحتضرون هو أن الأطفال يعرفون، فالوالدان يشعران بالأسى الشديد على كل التجارب التي لن يحظيا بها مع طفلهما، لكنّ الطفل لا يفكر قائلًا لنفسه:

«لن أستطيع الزواج»، فهو أمر لا يعرفه في تلك المرحلة، ما لم تزرعه أنت في عقله. ربما لن يرى كلبه من جديد، لكنّ هذا أمر لا يشبه أسى الوالدين على كل ما يتوقعان خسارته طوال عمر كامل.

هاريس: إذن فالحقيقة الجديرة بإخبارها للطفل لا تشبه خسارة الوالدين المرتقبة، أو أفكارهما عما سيخسره الطفل نفسه.

هوارد: صحيح، فإخبارك الطفل بأنه «من المحزن جدًّا أنك ستموت لأنك لن تتزوج» يخطئ الهدف. فلعلك ستقول أيضًا: «لن تستطيع أيضًا أن تخدم في الجيش، لن تستطيع أن تقتل أحدًا، لن تشعر بموت أشخاص آخرين تحبهم». ألا ترى؟ هذه هي الحياة. قد لا تحظى دومًا بنهاية سينمائية، فهناك الكثير من الإيجابيات والسلبيات. وفي النهاية سنموت جميعًا، والسؤال الوحيد هو: ما الذي فعلته بين وقت ميلادك ووقت وفاتك؟ فهل استغللت هذه الفرصة الفريدة على أفضل نحو؟

هاريس: أتفق مع ذلك كله، لكن حالات من هذا النوع تقترح وجود بعض المحاذير على قول الحقيقة بدقة. إذ سيظل هناك بعض التجاذب بين الصدق ومسؤوليتنا عن حماية الأطفال وغيرهم ممن نظن أنهم أقل استعدادًا للتعامل مع الحقيقة كما نراها. وهكذا، لنقل أنك أمضيت كل الوقت المطلوب للتوصل إلى ماهية الحقيقة فعلًا، لكنك في محضر شخص، سواء أكان طفلًا أم بالغًا، تظن أنه يحتاج إلى الحماية من حقائق معينة. تردني أمثلة أخرى على ذلك من أشخاص يعتنون بوالدين مصابين بالخرف. تستيقظ أمك كل صباح مثلًا وهي تتساءل أين أبوك، لكنّ أباك قد توفي منذ خمسة عشر عامًا. وفي كل مرة تشرح لها هذا، تضطر أمك إلى أن تعيش الفجيعة والأسى من جديد، ثم تستيقظ في الصباح التالي وهي تبحث عن زوجها. لنفترض أنك تكذب، وتقول شيئا مثل: «آه، لقد سافر في رحلة عمل»، وسرعان ما تنسى أمك غياب أبيك ولا يستيقظ فيها الحزن مجددًّا.

هوارد: هذا مثال لافت. قد يغريني الموقف كي أقول شيئًا مثل: «حسنًا، إنه حيث يكون في ذلك الوقت من اليوم عادةً». فحقيقة أنه مدفون في مكان ما من الأرض لا تضيف أي شيء لمعرفة هذا الشخص بما يجري. وكما أشرت، فلعلك ستعرِّضها لنفس الآلام من جديد. ومثلما أوضحت الموقف، فلماذا قد تفعل بها ذلك؟

هاريس: لكن ما يبدو أنك تقرّ به هنا، هو أن من الجائز أن تتهرب بعض الشيء في مواقف من هذا النوع. وفي أقل تقدير، قد يتطلب الأمر بعض المهارة كي تدخل الخيط في الإبرة، وتعثر على حقيقة مناسبة لحالة الشخص الآخر.

هوارد: قد أسمي ذلك «قول الحقيقة بخبرة» بدلًا من «التهرب»، بمعنى أن هذا الشخص لو نظر مجددًّا إلى المحادثة بأكملها –لنقل إنها تحسنت فجأة وقالت «آه، كنت مصابة بداء الزهايمر، كيف تعاملت معي حين سألتك تكرارًا عن أبيك؟» – فسوف تنظر إلى النص وتقول «أتعلم؟ هذا صحيح. كان أبوك في عقلي في مكان ما، لكنني لم أعلم أين كان فحسب. وقد سمح ما قلته لي بالخروج من تلك الدوامة». ولا بأس بذلك.

هاريس: سأستمر بإلقاء الحالات الصعبة عليك يا رون.

هوارد: امضِ في ذلك.

هاريس: لنتناول هنا مشهد احتضار مجددًا، حين يسألك شخص محتضر: «هل خنتني من قبل أثناء زواجنا؟» لنقل إنها زوجة توجّه السؤال لزوجها، والجواب الصادق هو أنه خانها فعلًا، لكنّ حقيقة علاقتهما —**الآن**— هي أن ذلك غير مهم على الإطلاق. لكنّ الحقيقة أيضًا هي أنه بذل جهدًا عظيمًا لإخفاء الخيانة عنها في وقت ما، وقد صمت عنها منذئذ، فأي خير قد يأتي من قول الحقيقة في ذلك الموقف؟

هوارد: حسنًا، هذه في الواقع مشكلة من جزأين، الجزء الأول هو: لماذا قد يرغب هذا الزوج في أن يعيش كذبة طوال حياته؟

هاريس: أتفق معك، لكننا مضطرون إلى وضع إطار حول الحقائق المهمة في الحاضر، وإن لم يكن شخص ما أخلاقيًّا بالكامل حتى الأمس، فعليه أن يعرف كيف يعيش مع عواقب سوء سلوكه. وهذا أمر مدفون في طيات الماضي، لعله لم يفكر به منذ أمد، لكن الواقع أنه قد خان زوجته فعلًا، وهي الآن تسأله عن ذلك. في عقله، يبدو أن الخيار أمامه بين أن يكذب، وبين أن يعيش الأيام أو الأسابيع الأخيرة من زواجه بصدق تام، لكنّه سيكسر قلب زوجته دون أي سبب واضح.

هوارد: حسنًا، هذا واحد من تلك الأمثلة النموذجية التي نتعرض لها أحيانًا في درس الأخلاق. لقد سيطر إرهابيون على طائرة وهم يحاولون دفعك نحو قتل امرأة عجوز ضعيفة، مهددين بأنهم سيطلقون النار على الجميع إن لم تفعل. لكنّ الحياة لا تسير فعلًا على هذا النحو. فأنا لا أعرف مثلا إلّا بضع زيجات كان الزوج فيها قد خان زوجته دون أن تشكّ بذلك .

هاريس: لن أفلتك بهذه السهولة قبل أن تجيب. أظن أن هناك شيئًا واقعيًّا ما في حالة كهذه. بل يمكننا حتى القول بأنها قد شكّت في ذلك طوال تلك السنين، لكنّها دفنت شكوكها. أما الآن فهي على فراش الموت وهي ترغب أخيرًا في الحقيقة، لأي سبب كان.

هوارد: إذن فقد عقدا مؤامرة صامتة حول عدم الحديث عن هذا الشيء طوال حياتهما، ثم ماذا؟ بعبارة أخرى، فإنها تتحمل المسؤولية بقدر ما يتحملها هو. والسؤال هو: هل سيبدآن الآن بعيش حياة منفتحة ويصبحان صادقين مع بعضهما أم لا؟ يمكنهما فعل ذلك. بوسعه أن يقول: «لم نتحدث قط عن هذا مسبقا، أهو شيء ترغبين حقًّا في الحديث عنه اليوم؟» قد يكون ذلك هو الوقت المناسب، مهما يكن اعتقادهما بما بعد الموت. أو يمكنه أن يقول: «انظري، لدينا معًا وقت قصير جدًّا، ومهما يكن ما فعلناه في الماضي، فإن لم يكن سببًا في سعادتنا الآن، فالأفضل تركه وراءنا.»

هاريس: ذلك أمر لافت، إذ يبدو أن ثمة حدسًا غريبًا ينشط في حالات كهذه، لم ألاحظه في ذاتي إلا مؤخرًا: فلو قصّرنا الأفق الزمني إلى بضعة أيام، أو بضعة أسابيع، أو حتى بضعة أشهر، فقد يبدو أنه

يقوّض الأساس المنطقي للعيش بصدق. فالظاهر أن العديد من الناس يشعرون بأنه إن لم يبقَ لديهم إلا أسبوعان معًا، فلعل من الأفضل أن يعيشوا كذبة مُرْضية، ولكن لو بقي لديهم 20 عامًا، فلعل الأجدر بهم أن ينظموا علاقتهم ويعيشوا بصدق.

هوارد: أنظر إلى الأمر على نحو آخر: بغض النظر عن الوقت الذي تبقّى لي، فأنا أريد أن أعيش حياة لا أشعرُ بأي ندم حيالها.

هاريس: أتفق معك، لكنني أظن أن وهمًا أخلاقيًّا يتسلل إلى هنا، فحين يتقلّص المتبقي من حياة أحدهم إلى مدة قصيرة جدًّا، فسيبدأ بالتساؤل: أي خير قد يأتي من قول الحقيقة؟ وفي رأيي، ربما يطبق المرء ذات التفكير على الحياة بأسرها.

هوارد: دون شك، وذلك ينفذ إلى أساس ما نتحدث عنه هنا، وهو كيف تريد أن تعيش حياتك وتعتني بمن حولك فيها. لقد اعتاد والدي أن يتحدث عن كون المرء رجلًا عند كلمته، وأظن أن هذه العبارة تعدّ تمييزًا جنسيًّا حاليًا، لكني لم أعد أسمع ذلك اليوم. لقد قُدّم كلينت كورفر، طالب الدكتوراه الذي ساعدني في تدريس مساقي وتأليف كتابنا عن الأخلاق، ذات يوم في مؤتمر، وعلى نحو صحيح، بوصفه «الرجل الذي يقول الحقيقة دومًا». وأجد أنّ من المذهل جدًّا أن يحتاج أي شخص إلى ذكر ذلك. فالأمر أشبه بقول إنه لا يسرق أو يقتل أحدًا. فلِمَ لا نقول: «وهو يتنفس أيضا»؟ «لقد عاش عدة أعوام، وهو يتنفس طوال ذلك الوقت». عظيم، يسعدني سماع ذلك!

هاريس: إنما يدل ذلك على وفرة الكذب وشيوعه، فهو يحيط بنا، ومعظم الناس لا يفكرون أصلًا بالكيفية التي ستبدو عليها الحياة بدونه.

حالة صعبة أخرى تخطر في البال، جاءتني أيضًا من قارئ: أنت تمارس الجنس مع زوجتك أو تمارسين الجنس مع زوجك وتتخيّل شخصًا آخر، ثم يستجمع شريكك الجرأة ليسألك عمّا كنت تفكر به حين كنت تمارس الجنس. والجواب الصادق هو أنك كنت تتخيل شخصًا آخر. ولكن لنقل إن شريكك لن يتقبل هذه المعلومة، بل سوف يعدها انتهاكًا حقيقيًّا لثقته، بدلًا من مجرد نتيجة طبيعية لامتلاك خيال بشري.

هوارد: حسنًا، هذه حالة أخرى ربما يكون الوقت فيها، ما أن يتطرق الشك، قد حان للمحادثة. فما الذي يجوز قوله هنا؟ أهو «أيًا يكن ما يثيرك»؟ — مثلًا «سأكون أنا القرصان وأنتِ الفتاة الضعيفة...» وهكذا، هل هذا مقبول؟ أم سيدفعك ذلك إلى أن تقول: «يا للهول، إنك لا تراني على حقيقتي»؟ سيختلف الناس بالتأكيد في هذا المجال، لكنّ على الأزواج أن يجروا محادثة صادقة حول ذلك، وأعتقد بأن الصدق هو كل ما يهمنا فعلًا، فهو الذي يغير الموقف.

لماذا قد ترغب في أن تعيش كذبة في حياتك الجنسية؟ يبدو من العبث أن تحيا حياة مظاهر، وإنه من الجيّد أن يكون هنالك بعض الخيال، فلِمَ لا تقول: «انظري، إن كان يثيرك أن تتخيلي أني براد بت، فسيكون الأمر أمتع لي حين تكونين مستثارة، فلا بأس في فعلك لذلك. فهذا سبب وجودي هنا من الأساس، أليس كذلك؟ أنا أحبك، وأريد أن أعيش معك أفضل حياة ما دام ذلك بوسعنا.»

هاريس: يمكنني أن أشعر بقرّائنا وهم يتركوننا أفواجًا، لكني أتفق معك. لنعد إلى حالة تكون فيها أمام شخص يحتمل أن يتصرف على نحو غير أخلاقي، فهل يمكنك أن تذكر المزيد عن الصدق في هذه المواقف؟

هوارد: حسنًا، سأفرّق بين منتهكي الأحكام أو المبادئ –أي الذين يؤذون الآخرين أو يسرقون– وأولئك الذين يكتفون بالكذب أو الحديث على نحو لا أخلاقي، فالكذب ليس جريمة ما لم يكن جزءًا من حيلة ما، وإذا سألك أحدهم عن الوجهة إلى وولمارت، وأنت تعرف الطريق لكنّك جعلته يمشي في الاتجاه المعاكس، فذلك ليس أمرًا جيدًا، لكنّه ليس جريمة. تخيّل لو عاد ومعه شرطي وقال: «هذا هو الرجل الذي ضللني». فلك أن تقول: «نعم، فعلت ذلك. الأمر فقط أنني أهوى مشاهدة الناس وهم يتوهون في الاتجاه الخاطئ». وهذه ليست جريمة.[19] لكنها ليست سلوكًا حسنًا. قد تكون سببًا يدفع أحدهم إلى مقاطعة عملك، أو طردك من جماعات معينة، لكنها لن تؤدي إلى إلقائك في السجن.

أفرّق بحذر هنا بين ما أسميها «انتهاكات الأحكام» –أي التعدي على أشخاص مسالمين صادقين– وكل ما سوى ذلك.

هاريس: نعم، ألاحظ ذلك. وهذا يقسم الأخلاق إلى صنفين، يرتقي أحدهما إلى رتبة النظام القضائي كي يحمي الناس من شتى الأضرار.

هوارد: في الواقع، هناك أيضًا صنفان في مجال الكذب؛ الأول هو الذي يعترف الناس فيه بالمشكلة (أي الوضع الذي يتضرّر فيه الناس بوضوح من الأكاذيب) والثاني هو الحالات التي يميل فيها الجميع إجمالًا إلى الكذب ولا يأبهون بذلك، أو لا يجدون عنه بديلًا. ولهذا فإنّ كتابك مهم جدًّا، لأنّ الناس يظنون أنه من الجيد أن تقول أكاذيب تُعرف بـ «البيضاء». فقولك «واو، تبدين رائعة في هذا الفستان»، حتى حين تعتقد بأنه غير جذاب، هو كذبة بيضاء يبررها عدم رغبتك في إيذاء مشاعر ذلك الشخص.

كان المثال الذي ذُكِر في محاضرة الأمس يقول: هل ترغب في جهاز «مرآتي مرآتي، من هي أجمل نساء الدنيا؟»* أم في مرآة تظهر شكلك كما هو حقًّا؟ أو: تخيّل أنك اشتريت سيارة ذات خيار خاص يقدم لك معلومات تفضّلها أكثر من الحقيقة، فلو رغبت في زيادة السرعة، فسيخبرك بأنك كنت تسرع فيما مضى أكثر من الآن، ولو مررت بمحطة بنزين، فسيخبرك بأنك لا تحتاج إلى التزوّد بالوقود، بكلّ تأكيد لن يرغب أحد في ذلك، فلماذا إذن يمكن أن ترغب فيه في حياتك إجمالًا؟

هاريس: لكن – من منطلق تطوّري ونفسي معًا – فإنّ هناك بعض الحجج التي تشير إلى أن التفاوت الطفيف بين معتقدات المرء والواقع قد يكون تكيّفيًّا ومفيدًا نفسيًّا. أثق بأنك على علم بالبحث الذي يظهر أنك لو جئت بشخص مكتئب إلى غرفة مليئة بالغرباء كي يقدم خطابًا موجزًا، فسيميل إلى أن يقيّم الانطباع الذي أحدثه في الآخرين على نحو دقيق، أما الشخص العادي فسيميل إلى المبالغة في نظرة

* عبارة ترددها زوجة الأب الشريرة أمام مرآتها السحرية في قصة «بياض الثلج والأقزام السبعة». – المترجم

الآخرين الإيجابية تجاهه، فمن الصعب أن نعرف ما السبب وما النتيجة هنا، ولكن يبدو أن التحيز التفاؤلي قد يكون مفيدًا نفسيًا.

هوارد: لعله سمح للناس بالبقاء بنسبة أكبر في الماضي.

هاريس: نعم. في الواقع، لعلّ خداع الذات قد عاد علينا بمنافع تطورية من أنحاء أخرى. فروبرت تريفرز يقول مثلًا إن القادرين على تصديق أكاذيبهم يصبحون كاذبين أفضل، وللقدرة على خداع الأعداء منافع واضحة في ظروف الطبيعة. من الواضح أن هناك أشياء عديدة ربما كانت تكيّفية لأسلافنا، كالحرب القبلية، والاغتصاب، ورهاب الأغراب، نعدها اليوم غير أخلاقية، ولن نرغب أبدًا في الدفاع عنها. لكنني أتساءل إن كنت ترى أنّ من الممكن للنظام الاجتماعي الذي يعزز قول الحقيقة، أن يفشل في تعزيز رفاهية كل المشاركين فيه، فهل يمكن لقدر ما من الخداع أن يكون مفيدًا لنا؟

هوارد: يعيدنا ذلك إلى الفروق التي أقمتها بين المبادئ الوقائية، والأخلاقية، والقانونية. فهل عبارة «الصدق أفضل سياسة» وقائية؟ بعبارة أخرى، فهل من مصلحتك أن تكون صادقًا فحسب؟ وذلك يختلف عن القول: «إني ملتزم أخلاقيًّا بالصدق»، لأنك ربما تصادف مواقف منفردة يمنحك الكذب فيها منفعة.

أعتقد أن التقييم الدقيق يشجّع النموّ، فإخبار الأطفال بأنهم ينجزون دومًا أشياء رائعة، بغض النظر عن منجزاتهم الواقعية، لن يخدمهم حين يواجهون العالم. وامتلاك موقف عقلاني إيجابي تجاه الحياة أمر وقائي، لكنّ الثقة المفرطة في قدراتك ليست كذلك.

قال لي طالب بالأمس بأنه قدم مؤخرًا عرضًا لشراء شيء ما، وأخبر البائع بأنه لا يملك مالًا كافيًا لدفع السعر الكامل. ولكنّ هذه مانت كذبة، إذ كان لديه المال فعلًا، لكنه قال: «أملك كذا فقط»، وقال البائع «حسنًا، سأعطيك إياه لقاء كذا، إن كان هذا كل ما لديك». وهكذا فقد كان الطالب مسرورًا بهذه المفاوضة لأنه، من وجهة نظره، ادّخر مالًا عبر الكذب. ولكن كان بوسع البائع أن يقول: «آسف، لقد قدّمت لي عروض لدفع مبلغ أكبر من هذا»، وفي هذه الحالة ربما كانت كذبة الطالب ستفتضح لو كان يرغب بشدة في هذا الشيء وقال: «حسنًا، سأدفع لك أكثر من كذا أيضًا». والأمر كله يتلخص في مسألة إن كنت ترغب في عقد علاقات متكررة، فهل تنظر إلى حياتك من زاوية العلاقات أم التعاقدات؟

إن كنت تعرض سعرًا على eBay، فالحقيقة ليست مهمة، بل إنها حالة تعاقدية بالكامل. أما إن كنت أتعامل مع ميكانيكي السيارات لمدة طويلة، فالأمر ليس تعاقدًا. بل أصبح علاقة، وسيطلق أحكامًا تجاهي وتجاه مدى موثوقيتي كشخص. وسأطلق أنا أحكامًا تجاهه، وستكون لهذه الأحكام آثار طويلة الأمد على كلينا. وذلك سيغير من معضلة السجينين:* فإن كانت لديك علاقة مع شخص ما،

---

* **معضلة السجينين:** مسألة تمثل جوهر مشكلة التعاون ضمن نظرية الألعاب. وهي تتضمن متهمين، لا يملك المحقق أدلةً كافية لإثبات الجرم على أي منهما. والخيارات المتاحة أمامهما أثناء التحقيق هي: إما أن يشهد أحدهما على الآخر أمام القاضي، أو يلتزم الصمت. وفي حال آثرا معا الصمت، فلن تستطيع المحكمة إثبات التهمة على أي منهما، ويحكم عليهما بالسجن ستة أشهر فقط. أما لو شهد أحدهما على صاحبه، فسيخرج الشاهد دون حكم ويُحكم الآخر بالسجن عشر

فستكون لديك معتقدات مختلفة حول احتمال خيانته لك عما لو كان مجرد شخص أخذه المختبِرون ووضعوه معك في هذا الموقف.

لا أظن أن بوسعك الانتقال من «يوجد» إلى «يجب»، بالمعنى الفج للقول بأن الأشخاص الأخلاقيين يجنون مالًا أكثر، أو هم أسعد دومًا، وما إلى ذلك. فذلك سيعني إثبات أن التحلي بالأخلاق أمر وقائي دومًا. ومع أني أعتقد بأنه كذلك في العادة إلا أنه لا يمكنني إثبات ذلك.

هاريس: أتفق معك، ولكن يبدو أنك تمتلك حدسًا قويًّا جدًّا، أشاركك فيه، بأن علينا أن نعتبر الصدق مبدأ صارمًا، لأنه يصب في مصلحة الجميع معظم الوقت، ويسمح لنا بعيش أنماط الحياة وإدامة أنماط العلاقات التي نرغب فيها.

هوارد: أعتقد أن ذلك يشمل أيضًا حقائق حول ذواتنا، فخداع الذات ليست له أي قيمة. لم أكن مثلًا لأصبح مغنيًّا محترفًا. ولو لم أفهم هذه الحقيقة عن نفسي، لقال لي الناس: «أنت مغنٍّ رائع، عليك أن تترك وظيفتك وتبدأ في تسجيل الأغنيات». لكن ذلك محض هراء. فعليك أن تكون صادقًا تجاه نفسك —تجاه ما تعرف وما لا تعرف، وتجاه ما تستطيع أو لا تستطيع— وتظل مع ذلك مستعدًّا للتجريب والتغيير، وذلك بسيط للغاية في نظري.

هاريس: ومن نافلة القول إن من العقلاني أن تظل على صلة بالواقع، بما أن كل حركة تقوم بها في الحياة ستقيدها الوقائع أيًّا كانت، سواء في هذا العالم أو في عقول الآخرين، فاسترشادك بأي شيء سوى تلك الوقائع قد يتركك دائمًا عرضة للإحراج والخيبة. فحين تكون صورتك عن نفسك في العالم متضاربة مع وضعك الواقعي فيه، فإنّك ستستمر في الاصطدام بالأشياء.

أظن أن الناس لا يصابون بالحيرة، نفسيًا وأخلاقيًّا، إلا حين يتأملون ذلك الجزء من الواقع الذي لا يوجد إلا في عقول الآخرين. والسؤال هو: هل ترغب حقًّا في معرفة ما يظنه الآخرون عنك —عن مواهبك وتطلعاتك— أم تفضل أن تظل مخدوعًا في ذلك كله؟

يتخيل الناس أنهم يرغبون في الحماية من معرفة ما يفكر فيه الآخرون حقًّا، لأنهم يعتقدون بأن نشاطهم في هذا العالم لن يخدمه شيء أفضل من هذا الجهل. وأرى أنهم مخطئون، لكن من اللافت أن نتأمل في حالات قد يكونون فيها محقين.

هوارد: وهو كذلك — فالأمر يتلخّص في مسألة نظرتك إلى الحياة ككل، وأنا أميل إلى الركون إلى ما يشبه الطريق الثمانيّ النبيل لبوذا.* أتذكر ذات يوم أني استمعت لمتحدث بوذي يلقي خطابًا، وفي فقرة

سنوات. وإذا اختار كلا المتهمين أن يشهد على الآخر، فسيحكم عليهما بخمس سنوات من السجن. ولا يعلم كلا المتهمين بقرار الآخر أثناء التحقيق معه. – المترجم.

* **الطريق الثماني النبيل:** هو النهج الذي جعله بوذا طريقا إلى قهر المعاناة والانعتاق من عجلة التناسخ، وهو يتكون من مفردات ثمان (النظر السليم، النية السليمة، الكلمة السليمة، العمل السليم، كسب الرزق السليم، الجهد السليم، الذهن السليم، والتركيز السليم). وكثيرا ما يرمز له بعجلة الدهارما التي تحتوي ثماني عوارض. – المترجم

الأسئلة قالت امرأة: «لقد نشأت مسيحيةً، حيث كانت فكرة الإحسان بديهية، لكنك لم تذكر الإحسان على الإطلاق، ولذا فأنا أواجه مشكلة في فهم أخلاقياتك».

فقال لها: «حسنًا، حين كنت تفعلين كل أعمال الإحسان تلك» —التي قالت إنها كانت تؤديها بانتظام في الكنيسة، كمساعدة الناس في أرجاء العالم، عبر إرسال سلال مساعدات وأشياء أخرى— «هل كنت حقًّا تكترثين بالذين تفعلين هذه الأمور لأجلهم؟» صمتت المرأة لوهلة ثم قالت: «لا، لم أفكر حقًّا في ذلك». فقال المعلم: «حسنًا، حين تكترثين بهم، ستعرفين ما يجب فعله.«

وذلك مختلف جدًّا عن القول: «عليك أن تكون محسنًا». فحين تكترث حقًّا بتجارب الآخرين، ستميل إلى معرفة ما يجب فعله. إن المحادثة التي أجريها الآن معك هي أشبه بكتابة دليل لأناس غير مستنيرين مثلنا، لئلا نرتكب جميعًا الكثير من الأخطاء على طول الطريق.

أضرب أحيانًا مثلًا بشخص لم يعرف قط أن عليه وضع الزيت في سيارته الجديدة، لأنه ما من أحد أخبره بذلك. كما أنه لم يقرأ دليل استخدامها، وهكذا وبعد ثلاث سنوات فقد احترق محركه. يذهب من ثم بالسيارة إلى الورشة، ويقول له الميكانيكي: «عليك أن تضع الزيت في السيارات، فمحركك الآن مدمر». فيقول الرجل: «آه، ليتني عرفت!» كما ترى، لم يكن الرجل يقصد قط أن يخلق هذه المشكلة التي يجب عليه الآن حلها. والآن، بحديثنا عن الأخلاق، فأنا وأنت نحاول الارتقاء بحساسيات الناس بحيث يمكن لنا جميعًا أن نعيش على نحو حذر، يبعدنا عن أن نقول فيما بعد: «رباه، بِمَ كنت أفكر؟.«

هاريس: هذا ما شعرت به حين حضرت مساقك في ستانفورد أول مرة، فقد بدا الأمر كأني قد مُنحت جزءًا من دليل المستخدم للحياة الطيبة، وعبر اتباع المبدأ البسيط لقول الحقيقة، يمكنني تجاوز معظم المآسي غير الضرورية التي أقرأ عنها في الأدب وأشاهدها في حياة الآخرين. أتذكر أني غادرت مساقك وأنا أشعر بأني قد اكتشفت قنبلة في قلب حياتي ومُنِحت الأدوات اللازمة لتعطيلها قبل أن تحدث أي ضرر، ونلت بذلك راحة هائلة.

لكني بدأت أتساءل عن أي مستوى يمكن عنده استهداف المشكلات الأخلاقية التي نراها في العالم على أفضل نحو. فالمستوى الذي نميل إلى الحديث عنه، كما نفعل هنا، هو مستوى الشرعة الأخلاقية الشخصية للفرد وتوجهه الفردي في الحياة، لحظة بلحظة. لكني أظن أن أوفر العوائد تأتينا على مستوى تغيير الأعراف والمؤسسات الاجتماعية، أي عبر خلق أنظمة تعدّل من أولويات الناس، بحيث يصبح أسهل على عامتهم أن يتصرفوا على نحو أكثر أخلاقية من ذي قبل حين تحيط بهم حوافز منحرفة. فمثلًا، عادة ما يحتاج المرء إلى البطولة كي يجرؤ على كشف الأسرار السياسية، نظرًا لأنه على الأرجح سيخسر وظيفته جراء قول الحقيقة. ولكن في ظلّ مجتمع تسوده ثقافة الصدق، فسيصبح أسهل بكثير أن تكون صادقًا، وأنا مهتم بهذه التغيرات التي يمكننا فعلها لجعل كل القوارب تجري في نفس الموجة.

هوارد: صحيح، وأنا في حياتي الخاصة أعرف أني لا أرغب في التعامل مع أناس لا أنسجم معهم أخلاقيًّا لو صح التعبير. ومهما بدت الصفقة جذابة، فلو لم أثق بأولئك الناس —بالمعنى الذي نتحدث عنه أنا وأنت— فلن أتعامل معهم، مهما كان ذلك مربحًا.

لكنّ المشكلة هي أن الكثير في حياتنا اليوم بات تعاقديًّا. لقد اشتريت للتو شيئا من Amazon.com، ولم يكن هناك أحد لو صح التعبير، بل اقتصر الأمر على بطاقات ائتمان

وضغطات زر. إن ذهبت إلى المتجر اليوم، فسيخبرك النظام الليزري بالسعر ويعبئ العامل لك الأغراض. أما في الأيام الخوالي فقد كان الأمر هكذا «أرى أنك اشتريت الكثير من السباغيتي، هل أخذت معها صلصة؟» لم يعد ثمة شعور بأن العامل شريك في هذه التجربة لشراء شيء ما.

لدي هذا المثال عما أسميه «مطرقة متجر الأدوات»: ذهبت امرأة إلى متجر أدوات وأمسكت بمطرقة. وحين جاءت لدفع الحساب، سألها صاحب المتجر: «بماذا ستستخدمين هذه المطرقة؟» فقالت «أخبرني زوجي أن أشتري مطرقة، لأننا سنعلق بعض الصور في المطبخ». قد يقول المالك «حسنًا، لكن هذه مطرقة نجار محترف، وبالنسبة لهدفك هذا، فتلك المطرقة هناك ستخدمك بشكل جيد، وهي بثلث السعر». هذا هو الفرق بين العلاقة والتبادل، فإن كنت مهتمًّا بأن يبلي الآخرون حسنًا في حياتهم، فأظن أنك ترغب في هذا المستوى من الصدق، لكنّ مجتمعنا معرض لفقدان ذلك.

لدينا أفضلية تقنية عظيمة، لكن الأمر لا يشبه الطريقة التي كانت تسير عليها الأمور حين كان والدي يدير متجر بقالة، فحين لم يكن مع الأطفال مال كافٍ ليدفعوا، لم يكن ذلك يسبّب مشكلة، لأنه كان يعرف هوية كل منهم، وكان بإمكانهم أن يأتوا بالمال في المرة القادمة. لكنك لم تعد ترى ذلك اليوم، فلديك الآن بطاقة ائتمان، وفكرة أن تحاط بهذا النوع من الثقة واللطف لا تخطر على بالٍ، وهكذا فإن بعض أنواع العلاقات تبدو أقل إمكانية للحدوث.

هاريس: نعم، إن تغييرًا شاملًا للنظام يمكنه إما أن يسهّل صلاتنا الأخلاقية بالآخرين أو أن يُضعفها، وذلك يدفعني إلى سؤال ذي صلة: هل هناك أمور يعد فعلها مهمًّا —أي أخلاقيًّا في النهاية — لكنها تتطلب ممن يفعلها أن يضحي بأخلاقه؟ لقد طرحت ذلك بإيجاز في الكتاب حين تحدثت عن التجسس. وموقفي هو أن هناك وظائف معينة أعرف أني لا أريد فعلها، وأظن أنها سامة بطبعها للشخص الذي يتحتّم عليه فعلها، لكني لا أستطيع القول بأنها غير ضرورية. أفكر هنا بأمور كالتجسس والتجارب على الحيوانات. فأنا أعرف أني لا أريد أن أكون من يفتح رؤوس الفئران طوال اليوم، لكني لن أقول إلا تحت الضغط بأننا لا يجب أن نستخدم الفئران في الأبحاث الطبية. وهكذا، فبفرض أنك ستسلّم بأن التجسس ضروري أحيانًا، ما الذي تراه في حياة من الكذب يستلزمها العمل في وكالة المخابرات المركزية؟

هوارد: يمكنك أيضًا تصور ما يبدو عليه أن تعمل ضابطَ شرطة متخفّيًا.

هاريس: نعم، قد تكون هذه حالة أبسط، على فرض أن القوانين التي يعمل لفرضها جيدة. أعلم أنك تتفق معي حول كمّ الأضرار التي ترتّبت على الحرب على المخدرات، فلو كان شرطي متخفٍّ يخدع الناس كي يطبق قوانين المخدرات، فإنني أظنّ بأننا سنشكك معًا في أخلاقيات هذا النوع من العمل.

هوارد: بالضبط، سأرغب أولًا في التأكد من أن الضابط يطبق قوانين جيدة، فلو عثر على مغتصب متسلسل، فذلك جيد. يسعدني أن يوجد رجال شرطة يبحثون عن أناس كهؤلاء ويسوقونهم للعدالة. فنحن جميعًا ندفع ثمنًا هائلًا حين نعيش في عالم يسكنه أناس يخرقون الأحكام. أتمنى لو كنا نعيش في عالم لا يحتاج فيه أحد إلى كلمات السر. لكننا نملك كلمات سر وإنذارات سرقة ومفاتيح... لو ذهبت إلى الريف، ستجد من يسألك: «أتعني أنك لا تترك مفتاحك في السيارة؟ وأنك تقفل منزلك؟»

ولهذا أرغب في نظام قوي جدًا كي يردع خارقي الأحكام على أساس التعويض. بعبارة أخرى، فإن بعض الأشياء التي تفعلها تفرض تكاليف على كل من حولك. لم أتعرض للسرقة قط، لكني أدفع الثمن نيابةً عن الناس الذين يرتكبون السرقة، من خلال التأمين وتكاليف أخرى، ولو قمت بسلوك من هذا النوع، فعليك أن تدفع أعباءه، لكنّ هذه قصة أطول.

هاريس: أتفق معك في هذه النقطة أيضًا، ففي حدود الممكن، يجدر بنظامنا القضائي أن يلزم المجرمين بتسديد ديونهم للمجتمع بدلًا من أن يجعلهم يعانون بلا نفع جرّاءها.

هوارد: المشكلة هي أننا لا نستطيع الفصل بين هذه الأمور حين ندخل في مناقشة من النوع الذي نجريه الآن، فأي نوع من الجرائم يوجد في المجتمع؟ وكيف تعثر على الذين يرتكبونها؟ أي نوع من الأحكام يجب أن يتلقوا؟ وما هي العقوبات التي يجب أن توقع عليهم بسبب ارتكابهم لتلك الأمور؟ سيشكل ذلك كتابًا بحد ذاته، لكنه مهم للغاية.

هاريس: بلا شك. حسنًا يا رون، كان ذلك رائعًا، وأظن أن القراء سيجدون أفكارك حول كل هذه الأمور مفيدة جدًّا. شكرًا لك لإتاحة الوقت للحديث معي. ودعني أقول مجددًّا، إن لم أكن قد أخبرتك شخصيًّا، بأن المساقات التي درّستها في ستانفورد ربما كانت أهم ما تلقيته. فمن النادر أن تجد الحكمة تُقدم مباشرة في سياق أكاديمي، لكنّ هذا كان ما فعلته، وبقيت تفعله طوال عقود، ولذا أرغب فقط في أن أقول: «شكرًا لك.»

هوارد: على الرحب والسعة. لقد كان رائعًا أن نجري هذا الحوار.

شكر وتقدير

إني ممتن لجهود التحرير التي قامت بها زوجتي ومعاونتي آناكا هاريس. إنّ دور المحرر جوهري دومًا، ولكن في هذا البحث تحديداً، أجد أن دَين آناكا كان ثقيلاً عليّ، لأن الموضوع ذاته كان فكرتها. في كل أعمالي، تحسّن آناكا من المحتوى، والبنية، والنبرة، والصياغة، ولأي كاتب كان، فإنّ الحب الحقيقي لا يمكن أن يتّخذ شكلًا أعظم من هذا...

أودّ شكر رونالد أ. هوارد لأنّه علّمني، لأول مرة، منافعَ الصدق خلال عامي الأول في ستانفورد، ولمساهمته في المحادثة المقدمة أعلاه.

وأدين لأمي، التي حسّنت تعليقاتها من كرّاس **الكذب** بأسره، وإلى أصدقائي إميلي إلسون، وتيم فيريس، وسيث غودين لملحوظاتهم المفيدة جدًّا على مسوّدة سابقة من هذا النص. كما أود شكر مئات القرّاء الذين استجابوا لدعوتي لمراجعة الكتاب نقديًا بعد نشر أول نسخة رقمية.

كما استفاد **الكذب** من التحرير النصّي الخبير لمارثا سبولدنغ.

الهوامش

1. لقد أودع هوارد الكثير من مادته في هيئة كتاب: R.A. Howard and C.D. Korver, **Ethics for the Real World: Creating a Personal Code to Guide Decisions in Work and Life** (Cambridge: Harvard Business School Press, 2008). ومع أني لا أتفق كليًّا مع فصل المؤلفين للأخلاق عن سائر القيم البشرية، فإني أرى أن القراء سيجدونه كتابًا مفيدًا للغاية.

2. لقد جادل البعض بأن التطور لا بد أنه انتقى قدرة على خداع المرء لذاته، مما سهّل عليه خداع الآخرين [انظر William von Hippel and Robert Trivers, "The Evolution and Psychology of Self-deception," **The Behavioral and Brain Sciences** 34, no. 1 (2011): 1–16; discussion 16–56]. ولكن إن كان وجود شكل ما من خداع الذات مكافئًا بالفعل «للكذب على الذات» فسيظل ذلك محل جدل. فلا شك في أننا قد نعمى عن حقائق عن أنفسنا أو عن العالم **يجدر بنا فعلًا** أن نعرفها –والأبحاث على التحيزات الإدراكية مدهشة– لكنّ السؤال يبقى إن كنا نرى الحقيقة ثم نقنع أنفسنا دون وعي بغيرها، أم أننا لا نرى الحقيقة ببساطة في المقام الأول. وعلى أي حال، فإن تصديق المرء لأكاذيبه بحق حين يحاور الآخرين يكافئ الصراحة. ولذا يبدو أننا لسنا بحاجة إلى القلق بشأن خداع الذات في الوقت الحالي.

3. S. Bok, **Lying: Moral Choice in Public and Private Life** (New York: Vintage, 1999).

4. B.M. DePaulo and D.A. Kashy, "Everyday Lies in Close and Casual Relationships," **Journal of Personality and Social Psychology** 74, no.1 (Jan. 1998): 63–79.

5. B.M. DePaulo, et al.,"Lying in Everyday Life," **Journal of Personality and Social Psychology** 70, no. 5 (1996): 979–995.

6. P.J. Kalbfleisch, "Deceptive Message Intent and Relational Quality," **Journal of Language and Social Psychology** 20, nos. 1–2 (2001): 214–230; T. Cole, "Lying to the One You Love: The Use of Deception in Romantic Relationships," **Journal of Social and Personal Relationships** 18, no. 1 (2001): 107–129.

7. ثمة تمييز ذو صلة في الأخلاق العملية بين الأوامر السلبية والإيجابية: فالأوامر السلبية أفعال علينا تجنبها، والأوامر الإيجابية أفعال علينا أداؤها. والاختلاف بين هذين الصنفين لافت حقًّا: حيث يمكننا تأدية عدد لا نهائي من الأوامر السلبية دون بذل أي طاقة على الإطلاق، فبوسعي الامتناع عن القتل، أو السرقة، أو تخريب أملاك الآخرين دون أن أنهض من مجلسي. لكن الأوامر الإيجابية تتطلب أن **أفعل** شيئًا ما –كأن أجمع تبرعات لمؤسسة خيرية ما– وأي شيء أختار فعله سيتنافس مع كل الأمور الأخرى التي يمكن أن أخصص لها وقتي واهتمامي.

فرق مهم آخر بين الأوامر السلبية والإيجابية هو أن الأمر واضح جدًّا حين يطبّق المرء الفئة الأولى، أما الثانية فكثيرًا ما تحيط بها الشكوك. فقد أكون على يقين تام بأني لم أرتكب جريمة اليوم، ولكن بالنظر لأي من أفعال السخاء، قد أتساءل دومًا إن كنت قد أعطيت ما يكفي، إلى الناس المناسبين، على النحو المناسب، وللهدف المناسب.

إن عدم الكذب أمر سلبي، ولا يتطلب أي طاقة لتحقيقه. لكنّ قول الحقيقة **كاملة** أمر إيجابي، ويتطلب جهدًا لا ينتهي عند التواصل.

8. K.A. Broomfeld, E.J. Robinson, and W.P. Robinson, "Children's Understanding about White Lies," **British Journal of Developmental Psychology** 20, no. 1 (2002): 47–65.

9. في أقل تقدير، فإننا نمنعهم من التوصّل إلى الحقيقة **كما نراها**. بالطبع، حين يتعلق الأمر **بآرائنا** –إن كنا نعجب بعمل شخص ما، قصة شعره الجديدة، وهلم جرا– فلا فرق في هذه المسألة بين الواقع ورأينا فيه.

10. لقد خسر في النهاية عشرين رطلًا، وقد مضى على الأمر عامان، لكنّه حافظ على وزنه.

11. لقد انتقدني بعض القراء بشدة في هذه النقطة، بل أتى بعضهم بسيناريوهات تكون فيها عواقب قول الحقيقة فادحة جدًّا، ومنافعها ضئيلة جدًّا، إلى الحدّ الذي لا يمكن عنده إنكار فضيلة الكذبة البيضاء. خذ مثلًا:

> تخيل أنك مع ابنتك في يوم زفافها وأنك ترى فستان زفافها لأول مرة، لو كانت تبدو بدينة وهي ترتديه، فما من نحو يمكن أن تستفيد به من صراحتك. أنت على وشك الأخذ بيدها خلال الممر؛ وتقديم أي شيء في هذه اللحظة عدا الطمأنينة الخالصة يعد نقصًا في الحب. فهذا أحد أهم الأيام في حياة ابنتك، وأمامك الخيار بين الحفاظ (بأنانية) على سجلك الناصع في الصدق وبين تجنيبها القلق على نفسها في موقف لا يسعها فيه ذلك. فماذا تفعل؟ إليك تلميحًا: لن يقول الأب الصالح «نعم، تبدين بدينة في هذا الفستان»، ومن ثم يقدم لها نصائح حول الحمية والتمرين وهو يقودها خلال الممر.

أتفق مع ذلك. لكني أظن أن التطمين الصريح قد يظل ممكنًا حتى هنا، فنظرا لحب الأب لابنته، قد تكون «تبدين جميلة» -وهي جملة تركز على البنت أكثر من مزايا فستانها– حقيقة أهم وأسهل قولًا. لكني لست ممن يلتزم قطعيًّا بمبدأ الصراحة مهما كان الثمن. فلو بلغت تفاصيل موقف ما من الدقة بحيث لا توجد حقًّا أي منفعة ممكنة في قول الحقيقة، وكان الضرر واضحًا، فإن الكذبة ستبدو «بيضاء» بحق.

12. بوك (1999) تثير نفس النقطة.

13. B.J. Sagarin, K. Rhoads, and R.B. Cialdini, "Deceiver's Distrust: Denigration as a Consequence of Undiscovered Deception," **Personality and Social Psychology Bulletin** 24, no. 11 (1998): 1167–1176.

14. http://www.ted.com/talks/ben_goldacre_battling_bad_science.html

15. تظهر بعض النزاعات لأن هناك آراء خبيرة تساند كلا الجانبين في شأن مهم. وبعض الأسئلة لا حل لها بصدق. لكنّ التضليل ينتشر على نحو غير ضروري حين يُضبط أناس في مناصب ذات سلطة وهم يكذبون أو يخفون تضارب مصالحهم.

16. http://healthland.time.com/2011/01/06/studylinking-vaccines-to-autism-is-fraudulent/
http://www.cnn.com/2011/HEALTH/01/05/autism.vaccines/index.html

17. لقد أشار العديد من القراء إلى أن معظم منظري المؤامرة ليسوا كاذبين، فمعظمهم في الواقع مخلصون كليًّا في معتقداتهم. ولعل ذلك صحيح، ولكن لا شك أيضًا في أن العديد من نظريات المؤامرة تبدأ كأكاذيب، فمن كان أول قائل مثلًا بأن «أربعة آلاف يهودي لم يأتوا لعملهم في مركز التجارة العالمي صباح 11 سبتمبر 2001»؟ مؤكد أن ذلك الشخص كان يعرف بأنه يكذب. أما الاعتقاد الناتج بوجود مؤامرة يهودية فيستمر بتسميم العقول في أرجاء العالم الإسلامي.

18. http://www.samharris.org/blog/item/the-riddleof-the-gun

19. أخبرني أحد القراء بأن الكذبة التي يصفها هوارد هنا ستكون في الواقع دعوى ضرر مدني، لو قيلت عن عمد وكان الشخص الآخر قد «اعتمد على نحو معقول على المعلومات على نحو

أضرّ به». على أي حال، لن يعتمد أي شيء مهم في ملاحظات هوارد اللاحقة على هذا التمييز.

20. J. Malcolm. 1990. **The Journalist and the Murderer**. (New York: Vintage, 1990), p. 3.

21. Ibid. p. 32.

عن المؤلف

سام هاريس هو مؤلف الكتب الأكثر مبيعا حسب النيويورك تايمز: **نهاية الإيمان، رسالة إلى أمة مسيحية، المشهد الأخلاقي، والإرادة الحرة**. وقد فاز **نهاية الإيمان** بجائزة PEN لعام 2005 للكتب غير الروائية.

نشرت كتابات هاريس بأكثر من خمس عشرة لغة. كما نوقش هو وأعماله في **نيويورك تايمز، وتايم، ونيوزويك، وساينتفك أميركان، ونيتشر، ورولنغ ستون**، والعديد من الصحف والمجلات الأخرى. كما ظهرت كتاباته في **نيويورك تايمز، ولوس أنجلس تايمز، والإيكونومست، ونيوزويك، والتايمز (لندن)، والبوسطن غلوب، والأتلانتيك، وحوليات طب الأعصاب**، وغيرها.

هاريس أحد مؤسسي مشروع ريزون Project Reason الذي يرأسه، وهي مؤسسة غير هادفة للربح مكرسة لنشر المعرفة العلمية والقيم العلمانية في المجتمع. وقد حصل على بكالوريوس في الفلسفة من جامعة ستانفورد، ودكتوراه في علم الأعصاب من جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلس)، ويمكنكم زيارة مدونته على www.samharris.org.